الفصل الأول

التوسع العثمانى
فى العالم العربى

obeikandi.com

obeikandl.com

العالم العربي قبيل الفتح العثماني:

في مطلع القرن السادس عشر كان العالم الإسلامي - غرب آسيا - موزعاً بين ثلاث دول تنازعت فيما بينها زعامة الإسلام، وهي: الدولة الصفوية الناشئة في فارس، والدولة العثمانية، والدولة المملوكية.

ومن المعروف أن لفارس (إيران) تاريخاً مجيداً في الإسلام، وساهمت بنصيب كبير في حضارته، ولاسيما في مجال الثقافة العقلية. وكان الفرس في بادئ الأمر على المذهب السني، ثم اعتنقوا مذهب الشيعة الأمامية عندما قامت الدولة الصفوية وأخذت تفرضه على فارس وما جاورها. وكانت هذه الدولة قد نشأت بادئ ذي بدء كحركة دينية صوفية وسط الاضطراب الذي عم المنطقة عقب سقوط دولة المغول الكبرى. وتنسب هذه الحركة إلى الشيخ صفي الدين المتوفى عام ١٣٣٤م والذي كان يقيم في أردبيل من أعمال أذربيجان. ويعتبر الشاه إسماعيل الصوفي (١٥٠٠-١٥٢٤م) هو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية التي امتدت في عهده من هرات في الشرق إلى بغداد وديار بكر في الغرب، وكانت العاصمة تبريز. وقد جعل الشاه إسماعيل الصفوي من نفسه حامياً للمذهب الشيعي الذي اتخذه مذهباً رسمياً لدولته.

وكان لا بد أن يجذب العراق أنظار الشاه إسماعيل، لما فيه من مزارات أو عتبات مقدسة، وهي مقابر أئمة الشيعة في كربلاء والنجف، والتي تهفو إليها نفوس الشيعة وتحج إليها جموعهم في كل عام. هذا فضلاً عما يحتويه العراق من أراضٍ زراعية واسعة، كما أنه يفتح الطريق أمام الفرس إلى البحر المتوسط، ويضمن لفارس منفذاً سهلياً نهرياً على الخليج العربي. ومن ثم ، ففي عام ١٥٠٨م غزا إسماعيل العراق وهدم ما كان في بغداد من

قبور أئمة السنة وقتل جماعة من علمائهم، ثم زار العتبات المقدسة في الفرات، وقام بتعيين حاكم صفوي على العراق(١).

وترتب على الغزو الفارسي للعراق أن تقاربت حدود الدولة الصفوية من ناحية الغرب مع الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وكان الأتراك العثمانيون قد دخلوا آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر كقبيلة من القبائل التركية التي كانت على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر، تنزح من مناطق الإستبس في آسيا متجهة غرباً نحو الأناضول. وفي منطقة مغمورة في الطرف الشمالي الغربي من الأناضول، أقام الأتراك العثمانيون «إمارتهم» أواخر القرن الثالث عشر، وقد ساعد الإمارة العثمانية على البقاء والصمود في وجه تكتل الإمارات التركية السلجوقية ضدها، وهي إمارات ظهرت في الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر على إثر انهيار سلطنة السلاجقة الروم على أيدي المغول، ذلك الموقع الجغرافي الهام الذي شغلته الإمارة العثمانية في شمال غرب الأناضول بالقرب من الأراضي البيزنطية، فقد جعلها هذا الموقع تشرف على خط المواصلات التجارية الذي يربط القسطنطينية بمدينة قونية من ناحية وبقية العالم الإسلامي من ناحية أخرى، مما هيأ لها مورداً تجارياً ثابتاً، وساعد على قدوم العناصر المؤسسة للإمارة من العلماء والصناع والتجار من داخل العالم الإسلامي(٢).

ومنذ منتصف القرن الرابع عشر تقريباً، اتجه العثمانيون في توسعهم صوب البلقان في أوربا، وكان هذا الاتجاه الأوربي المبكر كذلك من العوامل المساعدة لهم على ازدياد قوتهم وتوسيع رقعة إمارتهم وتحولها إلى دولة

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ٨ أجزاء، بغداد ١٣٥٣-١٣٨٦/ ١٩٣٥-١٩٥٦، جـ٣، ص ٣٢٥-٣٥٢.

(2) Bernard Lewis, The Arabs in History, London 1968,pp.146-148.

فإمبراطورية شاسعة الأرجاء. ومن خلال المرحلة الأولى من الغزو العسكري العثماني، والتي امتدت من بدء قيام الإمارة العثمانية في الأناضول حتى وفاة السلطان بايزيد الثاني عام ١٥١٢م، قامت إستراتيجية التوسع الإقليمي العثماني في اتجاهين مختلفين في وقت واحد: اتجاه نحو أوربا وميدانه شبه جزيرة البلقان، واتجاه نحو آسيا ورقعته شبه جزيرة الأناضول. ففي البلقان كانت فتوحات العثمانيين على حساب ما بقي من أملاك الدولة البيزنطية وعلى حساب دول الصقالبة والإمارات اللاتينية، وفي الأناضول كانت فتوحاتهم على حساب البقية الباقية من أملاك الدولة البيزنطية أيضاً، والإمارات التركية السلجوقية. وفي خلال هذه المرحلة كذلك انتقلت عاصمة الدولة بين الأناضول والبلقان: من أسكي شهر إلى بروسة إلى أدرنة إلى القسطنطينية (أو إستانبول)[١].

وقد ظل العثمانيون متجهين إلى الفتح والتوسع في البلقان وحوض نهر الدانوب حتى مطلع القرن السادس عشر، ثم وجهوا منذئذ قدراً كبيراً من نشاطهم الحربي إلى الشرق، خصوصاً بعد أن تقاربت حدودهم الشرقية مع حدود الدولة الصفوية على إثر استيلاء الصفويين على العراق عام ١٥٠٨م، وبعد أن قضت كلٌّ من الدولتين العثمانية والصفوية على الإمارات التركمانية المجاورة. ولم تكن الحدود في تلك المنطقة محددة تحديداً جيداً أو مضبوطاً، بحيث تمنع الاشتباك بين الدولتين، كما كان يسكنها كعناصر مختلفة من أكراد وعرب وتركمان وأتراك، وهؤلاء كانوا يتأرجحون في ولائهم بين العثمانيين والصفويين، فكانت مشكلات الحدود من العوامل

(1) Ibid, p. 150.

التي أدت إلى إثارة المنازعات بينهم.

وفضلاً عن ذلك فإن الشاه إسماعيل الصفوي لم يكتف بإعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للعراق، بل استغل سياسة السلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) السلمية نحو الشرق وجهاده ضد القوى الأوربية في البلقان بصفة خاصة، فحاول أن ينشر المذهب الشيعي بين القبائل التركمانية في شرقي الأناضول للتمهيد لبسط السيطرة الصفوية السياسية هناك، وأخذت القبائل التركمانية في شرقي الأناضول تتجاوب مع دعوة الشاه إسماعيل الشيعية. وفي عام ١٥١١م اندلعت ثورة بين تركمان الأناضول بقيادة رجل عرف بلقب شاه قولي (عبد الشاه) الذي أعلن ولاءه للشاه الصفوي وتكاثر أتباعه واحتل كوتاهية، ولكن العثمانيين أخمدوا ثورته بالقوة. ولا شك أن المسؤولين في استانبول قد شعروا بفداحة الخطر الجديد الذي يمثله الشاه إسماعيل الصفوي بالنسبة لسكان الإمبراطورية العثمانية بالذات.

وفي أوائل عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) ازدادت العلاقات العثمانية الصفوية سوءاً، فقبل اعتلائه العرش وعندما كان أميراً على طرابيزون، أدرك سليم خطورة الزحف الشيعي فحاول إثارة والده بايزيد الثاني لمواجهته، إلا أن محاولاته ذهبت سدى. ولما اعتلى سليم العرش لم يقدم الشاه إسماعيل التهنئة إليه بهذه المناسبة، كما فعل ملك المجر وقيصر روسيا والسلطان المملوكي، فاعتبر سليم ذلك تصرفاً عدائياً من الشاه يكشف عن عدم اعتراف من جانبه بسلطنته. ولم يلبث أن ثار بعض إخوة سليم الطامعين في الحكم عليه فالتجأ أخوه الأكبر أحمد إلى الشاه الذي استغله لتأليب المعارضة على سليم، وإزاء ذلك كله هب سليم

لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه، فـاستصدر من شيخ الإسلام فتوى تُحَتِّم ضـرورة قتال الشيـعة باعتبـارهم خارجين على الدين القويم، وتجـيز بالتـالي قتلهم. واسـتناداً على هذه الفتـوى أجرى سليم مـذابح كثـيرة بين الشيعة في الأناضول، وردَّ إسماعـيل على ذلك بإقامة مذابح عامة بين السنة في بلاده، وتبـادل السلطان والشـاه الرسائل العـنيفـة، وتلا ذلك أن أعلن سليم الجهاد الديني وخرج لقتال الصفويين(١).

وحدث الصـدام الأول بين العثـمانيين والصـفويين في سهـل جالديران بالقرب من تبريز، حيث دارت مـعركة في ٢٣ أغسطس ١٥١٤ بين القوات العثـمـانية المسلحة بالبنادق والمدفـعية(٢) وبين القوات الصفـوية التي تتألف غالبـيتـها من الفـرسان التـركمـان الذين يستـخدمون الأسلـحة التقلـيدية ويجـهلون أسـاليب الحرب الحـديثـة حينذاك، ودارت الـدائرة بالطبع على الصفويين، وأثبت سلاح المدفعية فـعاليته في القتال، ودخل السلطان سليم تبريز عاصمــة الصفويين واستولى على أموال الشاه ونفـائس قصوره، وأمر بترحيل مهرة الصناع إلى إستانبول.

وعلى أن العثمـانيين لم يتابعوا بعد احتـلالهم تبريز التوغل في الأراضي

---

(١) د/ عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر، ص ١٥-١٧.

(٢) منذ بداية تأسـيس الإمارة العـثمـانية وطوال القـرن الرابع عشـر، كان المحـاربون العثـمانـيون يستخدمون الأسلحة الشائعة وقـتذاك، وهي السيوف والرماح والبلط والحراب، بالإضافة إلى أدوات الوقاية كالتروس والدروع. ونتيجة لاحتكاكـهم بالأوربيين أصاب العثمانيون شوطاً من التقـدم في مجال الأسلحـة الحديثـة بالنسبة لعـصرهم، فأدخل في عـهد السلطان مـراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) السلاح الناري على أسلحة الجيش، ودرَّب الإنكشارية على استخدامه، كما أُدخلتْ المدافع الكبيرة المصنوعة من البرونز، بينما كانت قذائفها عبارة عن كرات من الحجارة، ويبدو أنهم عـرفوا المدافع المتحـركة على عجـلات التي تجرها الخيول، وقـد استتـبع ذلك إنتاج الذخائر والبارود اللازم للجيش.

الفـارسيـة وملاحـقة الشـاه إسمـاعيل الذي فـر إلى الداخل، ويرجع ذلك لأسباب مـتعددة، منها: وعورة مسـالك الهضبة الفارسـية، والقحط الذي عمَّ المنطقة كنتيجة لسياسة إحـراق الأرض التي اتَّبعها الشاه بعد انسحابه، إذ أتلف كل مـا يمكن أن يفـيد منه العـدو، ولذا قطعت الإمـدادات والمؤن عن العاصـمة، وعلاوة على ذلـك فقد تمرد الإنكشـارية معلنين رفـضهم لفكرة متابعة الهجوم.

وفي أعقـاب معـركة جالديـران احتل العثـمانيـون كردستـان وديار بكر ومنطقة مرعش من أيدي زعماء التركمان، كما دخلوا الموصل، ولكن بغداد والبصرة[١] بقيتا تحت الحكم الصفوي. وكان لضم الأناضول الشرقية نهائياً إلى الإمبراطورية العثماني، نتائج استراتيـجية واقتصادية هامة، فقد حمت الهضبة الأناضولية في الشرق الدولة العثمانية من الغزاة القادمين من أواسط آسيا، كـما سيطر العثـمانيـون على طرق نقل الحـرير الفارسي بين تبـريز وحلب، وبين تبـريز وبورصـة. وإذا كان العـثـمـانيـون قد أمنوا حـدودهم الشرقية بفضل انتصارهم في جالديران، فـقد كشفت هذه المعركة عن حاجة الدولة الصفوية لإعـادة تنظيم جيشهـا وإدارتها، خصوصاً بعـد أن ضعفت العـلاقـات السيـاسـيـة بين الشـاه وبين القبـائل والتـركـمـانية المعـروفـة بالقزلباش[٢].

وكانـت القوة الثـالثة ذات الوزن في العـالم الإسلامي وقـتـئـذ هي دولة المماليك في مصر والشـام، وصاحبة السيادة على الحـجاز واليمن. وكانت هذه الدولة قد تولَّت الحـكم منذ أواسط القرن الثالث عـشر تقريبـاً، وعـاش

(١) كان راشد بن مغامس أميراً مستقلاً على البصرة، ولكنه يدفع إتاوة سنوية لمن يحكم بغداد، وقد خضع للشاه إسماعيل الصفوي عام ١٥٠٨م.

(٢) د/ عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٧٣، ص٦٤.

سلاطينها في رخاء هيأته لهم تلك الثروة الطائلة التي جَنْوها من وراء فرضهم الضرائب الجمركية على السلع الشرقية عند مرورها في أراضيهم، وهي سلع كانت أوربا وبلاد الغرب بشكل عام تحتاج إليها؛ لاستخدامها في حفظ اللحوم وإعطاء مذاق خاص للطعام، أو في إعداد الدواء .

وكانت السلع الشرقية تسلك عدة طرق إلى أوربا في العصور الوسطى، فكان شطر ضئيل منها يُنقل براً بالقوافل من الشرق الأقصى عبر أواسط آسيا إلى الأستانة ومنها إلى أنحاء أوربا. ولكن معظم السلع كانت تسلك طريقين آخرين، كان أولهما طريق الخليج العربي حيث كانت السفن تحمل المتاجر إلى البصرة، ومنها تنتقل براً بالقوافل عبر العراق وبادية الشام إلى موانئ الشام المطلة على البحر المتوسط. أما ثانيهما فكان طريق البحر الأحمر الذي تجتازه السفن طولاً حتى السويس، ومنها براً إلى العراق والإسكندرية وأحياناً دمياط، وكانت سفن الجمهوريات الإيطالية- وخصوصاً البندقية- تنتظر المتاجر الشرقية في الموانئ المصرية والشامية لتحملها إلى أوربا، وتمكنت حكومات المماليك في عهود قوتها من أن تُحَسِّنَ هذه التجارة وتشجعها، ووصلت الضرائب التي فرضتها السلطات المملوكية على السلع الشرقية إلى أضعاف ثمنها في حالات كثيرة، مما سمح بالإنفاق على إدارات الدولة ومرافقها وجيشها.

ومن جهة أخرى فقد كان للدولة المملوكية فضل إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام ١٢٦١م، وبذلك أضفت على نفسها الطابع الشرعي، وتبوأ سلاطينها مركزاً مرموقاً، فقد أصبح لهم المقام الأسمى على كل ملوك وحُكَّام العالم الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها، كما أصبحت للقاهرة مكانة سياسية ممتاز تفوق كل عواصم العالم الإسلامي؛

لأنها مقرُّ الخلافة التي يدين لها بالولاء الروحي كل العالم الإسلامي[1].

غير أن الكارثة الكبرى التي اعتبرها البعض أول الكوارث التي حلت بالعرب في تاريخهم الحديث، لم تلبث أن وقعت عام ١٤٩٨م. ففي ١٧ مايو من ذاك العام رست سفينة الملاح البرتغالي فاسكو داجاما على شواطئ الهند خلال رحلته الاستكشافية البحرية حول رأس الرجاء الصالح، وعاد في أغسطس عام ١٤٩٩م إلى لشبونة ومع شحنة من التوابل. وهكذا ربطت رحلة داجاما غرب أوربا ربطاً مباشراً بالهند عن طريق الالتفات حول إفريقية، وتلت هذه الرحلة البحرية رحلات استكشافية أخرى، وأقام البرتغاليون قواعد في الهند. واعتماداً على قوة أساطيلهم البحرية، شرعوا في مهاجمة السفن العربية في كل مكان وإغراقها وإحراقها أو الاستيلاء عليها.

وحرص البرتغاليون على احتلال قواعد عند مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي، ليسهل عليهم إغلاق المنافذ العربية الجنوبية لتجارة الشرق ومنعها من الوصول إلى أسواق مصر والشام، فاستولوا عام ١٥٠٦م على جزيرة سوقطرة في خليج عدن بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، ثم التفتوا في العام التالي إلى مدخل الخليج العربي للسيطرة على جزيرة هرمز التي تقع في مدخل هذا الخليج وتسيطر عليه. وقاد ألبوكيرك قائد الأسطول البرتغالي حملة إرهاب وعنف وحرق وتخريب ضد السواحل الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية، فهاجم مسقط وخورفكان وأحرقهما وشرَّد سكانهما، ولاقت مدينتا صحار وكلهات مصيراً مماثلاً. وتقدم ألبوكيرك نحو هرمز فاستولى عليها بعد معركة بحرية قصيرة، واضطر حاكمها الأمير

(١) ابن زنبل، تاريخ السلطان سليم خان مع قنصوة الغوري، القاهرة، ١٢٧٨هـ، ص٨.

سيف الدين أن يعلن خضوعه لملك البرتغال، وتعهد بتقديم جزية سنوية له. وأقام البرتغاليون قاعدة لهم في هرمز، ومنعوا أية سفينة من الملاحة في مياه الخليج إلا بترخيص منهم.

وعلى هذا النحو نجح البرتغاليون في إغلاق المنافذ البحرية في وجه العرب، كما نجحوا في احتكار التجارة الشرقية، وقاموا بتحويل الجانب الأكبر من هذه التجارة إلى الطريق الجديد حول إفريقية، حيث كانت تصب مباشرة في لشبونة، مما نجم عنه خروج المشرق العربي من تيار التجارة العالمية من جهة، وسلب دولة المماليك من جهة أخرى من مقومات حياتها، إذ حُرمت من العوائد والرسوم الضخمة التي كانت تجنيها خزانتها من موانئ مصر والشام والحجاز. ولكي يتضح لنا مدى ما أصاب مصر المملوكية من خسائر، يكفي أن نذكر أن سفن القافلة لحكومة البندقية- وهي تتألف من ثمان إلى ثلاث عشرة سفينة - كانت تأتي إلى مصر مرتين كل عام، وهذا عدا سفن الأهالي التجارية التي كانت ترد إلى الإسكندرية طوال العام، وكانت جميعها تعود مُحَمَّلة بالتوابل. ولكن بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أصبحت القافلة الرسمية لا تزيد عن ثلاث سفن ولاتشاهَد في موانئ مصر إلى مرة كل عامين، وأصبح مجيء سفن التجار نادراً؛ لأن البنادقة أصبحوا لا يجدون ما يحملونه من التوابل(١).

وكان طبيعياً أن تتصدى دولة المماليك للخطر البرتغالي، وأن تعمل لإنقاذ اقتصاديها من الانهيار بإعادة طريقي التجارة القديمين- وهما طريقا البحر الأحمر والخليج العربي- إلى سابق عهدهما، فقد كانت أكثر الدول إفادة منهما وأشدها تأثراً بالتحول التجاري الجديد لا سيما أن هذا التحول

(١) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٤، ص ٤٥٨.

قد سايره العمل من جانب البرتغاليين لتحطيم القوى الإسلامية في الهند، ومحاولة التسلل إلى البحر الأحمر، مثلما حدث عام ١٥٠٥م حينما وصلت بعض قطع الأسطول البرتغالي إلى ميناء جدة بالحجاز، مما كان ينطوي على تهديد مباشر لمكة المكرمة .

ومع أن الدولة المملوكية كانت أضعف من مواجهة دولة البرتغال البحرية الناشئة، كما كانت أعجز عن القضاء على قوتها البحرية، إذ إن دولة المماليك لم تكن دولة بحرية شأن البرتغال، بل كان المماليك فرساناً وليسوا بحارة، هذا في الوقت الذي كان الصراع بين الدولتين يدور رحاه في البحار، فقد بذل السلطان قنصوة الغوري (١٥٠١م-١٥١٦م) جهده منذ عام ١٥٠٥م - مستعيناً بالبندقية - لإعداد حملة بحرية لإرسالها إلى الهند ومواجهة البرتغاليين هناك، وكان استنجاد الأمراء الهنود المسلمين بالغوري من العوامل التي شجعته على إرسال هذه الحملة. وفي عام ١٥٠٨م أبحر من السويس الأسطول المملوكي، وكان يتكون من حوالي ثلاث عشرة سفينة مسلحة بالمدافع، ووصل هذا الأسطول إلى المياه الهندية وتمكن من الانتصار في بعض المعارك، إلا أنه هُزم وتحطم في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩م[(١)].

وبرغم هذه الهزيمة وسوء أحوال مصر الاقتصادية، وتعرض سواحلها الشمالية لهجمات القراصنة الأوربيين وعلى رأسهم فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقيمون في جزيرة رودس ، فلم يفتر اهتمام الغوري بالتصدي للبرتغاليين، خصوصاً بعد أن هاجم ألبوكيرك عام ١٥١٣م عدن محاولاً الاستيلاء عليها ولكنه فشل، وكانت عدن مركزاً هاماً للتجارة وللسفن

(١) د/ بدر الدين عباس الخصوصي، تاريخ الخليج العربي، ط١، ص ١٥-١٨.

القادمة من الهند. فقام الغوري بإرسال نجدات عسكرية إلى سلطان كجرات[١] المسلم مظفر شاه بن محمود شاه (١٥١٠م - ١٥٢٥م) الذي استنجد به ضد البرتغاليين. وتألفت القوات قد التي أرسلها الغوري إلى الهند من اللاوند[٢] الذين كان العثمانيون قد بعثوا بهم إلى مصر بقيادة حسين الكردي وسلمان الرومي لتكون تحت تصرف المماليك في مواجهة خصومهم البرتغاليين، وكانت هذه القوات قد اتخذت من جدة قاعدة لها، وعين قائدها حسين المكردي والياً على جدة من قبل الغوري، غير أن حسين الكردي لم يمكث في الهند طويلاً فعاد بقواته إلى اليمن لتأمينها ضد الضغط البرتغالي.

وهكذا واجه الشرق العربي في مستهل القرن السادس عشر خطراً مزدوجاً: الضغط الصفوي الفارسي من جهة، والذي حاول جاهداً أن ينشر المذهب الشيعي تأسياً على أن نشر هذا المذهب يجيء في أعقابه بسط السيطرة السياسة، ثم الضغط البرتغالي من جهة أخرى، والذي احتكر الجانب الأكبر من التجارة الشرقية، ووطد أقدام في قواعد ومحطات مسلحة تقع على منافذ البحار الشرقية ومسالكها، وصار يحاول النفاذ إلى البحر الأحمر[٣].

أما المغرب العربي فلم تكن أحواله تختلف كثيراً عن المشرق العربي، فعلى أنقاض دولة الموحدين التي سقطت عام ١٢٦٩م قامت ثلاث دول

(١) كانت سلطنة كجرات أهم المماليك الإسلامية على ساحل الملبار أو ساحل الهند الغربي، وهي تحتل أقصى شمال هذا الساحل.

(٢) اشتهر اللاوند في الأناضول منذ عهد السلطان بايزيد الثاني، والتسمية مشتقة من كلمة Levantino (أي المشارقة) التي أطلقها النادقة على البحارة الذين عملوا في أسطولهم، وكانوا من أصل شرقي من سواحل آسيا الصغرى. وقد استعيرت هذه التسمية لإطلاقها على بحارة الأسطول العثماني والسفن الخاصة المنضمة إليه، وحُرفت بالتركية إلى لاوند Levand.

(٣) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثماني، بيروت، ١٩٦٢، ص٤٤.

obeikandi.com

صغيرة تقاسمت فيـما بينها ملك المغرب، وهي: دول الحفصيين في تونس، وبنوزيان في المغـرب الأوسط (الجـزائر)، والمرينيـون في المغرب الأقـصى (مراكش). ولا شك أن هذا التـفكك وما صحـبه من تنافس وتنازع بين هذه الدول، قد أطمع فيها القوى الأوربية المـواجهة على الجانب الآخر من البحر المتوسط، ولا سيما الإمارات الكاثوليكية المتعصبة في شبه جزيرة أيبريا التي كانت تزحف على ما بقي من ملك المسلمين هناك.

وفي أواخـر القرن الخـامس عـشر تمكـن الأسبـان من تحـقيق وحـدتهم السياسية باتحاد إمارتي أرغونة وقـشتالة، وتأكدت هذه الوحدة بالقضاء عام ١٤٩٢م على إمارة غـرناطة آخر المعاقـل الإسلاميـة في الأندلس، ثم تحول الأسبان من حـرب الاسترداد في الأندلس إلى حرب الهـجوم على أراضي المغرب العـربي، وهي التي كانت تشكل دائمـاً الخطوط الخلفيـة التي تحمي ظهور المسلمين فـي الأندلس. وشارك الأسبـان في تلك الحروب الصليبـية دولة البـرتغال التي بـرزت كدولة بحـرية من أواخر الـقرن الثـالث عشـر، وظهرت أسـاطيلها في البـحار خـلال القرن الرابع عشـر ، وأصبـحت قوة بحرية كـبيـرة في عهـد الأمير هنـري الملاح (١٣٩٤م-١٤٦٠م). وإذا كان البرتغـاليون قد ركـزوا على مراكش وبدأت السـواحل المراكشيـة تسقط في أيديهم تباعاً، فإن الأسـبان قد وجهوا نشاطهم الحـربي ضد سواحل الجزائر وتونس وطرابلس المغرب (ليـبيا) من أجل انتـزاع السيطرة على مياه البـحر المتوسط من أيدي العـرب والمسلمين، واحتلال أهم ثغـور شمال أفريقـية. ومن ثم فـقد شـهد مطلع القـرن السادس عـشر صـراعاً بحـرياً كبـيراً، أو بالأحرى حرباً بحرية طاحنة بين الجانبين[١].

واجتذبت هذه الحرب البحرية عدداً كـبيراً من البحارة والمغامرين، الذين

(١) د/ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق، ١٩٦٩، ص ٧-١٢.

نشأوا في خدمة الأسطول العثماني، ثم أخذوا يكوِّنون أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص، فتحصِّل على الغنائم الوفيرة وتجاهد ضد الغزاة الأوربيين أعداء الدين في الوقت نفسه. ولذلك كان هؤلاء المغامرون يُعْتَبرون في نظر المسلمين أبطالاً وطنيين ومناضلين ومجاهدين في سبيل ا ، وفي نظر خصومهم قراصنة بحار لا يخضعون لأي قانون أو نظام. وقد اشتهر من بين المجاهدين المسلمين في تلك الحقبة شقيقان من أصل يوناني اعتنقا الإسلام، وهما خير الدين وعروج، وكانا يعرفان باسم برباروسا لدى أعدائهم، وذلك بسبب لحية ذاك الأخير ذات اللون الأحمر القاني. وقد ذاع صيت الشقيقين وعلت منزلتهما بين المغاربة حتى أن اسميهما كانا يرعبان أهل الملاحة الأوربية من مضيق جبل طارق إلى بوغاز الدردنيل، وكان خير الدين وعروج يذهبان بما يستوليان عليه أثناء عمليات «القرصنة» في سواحل إيطاليا وأسبانيا إلى موانئ شمال أفريقية حيث يبيعانها بثمن بخس، فأثري عددٌ كبير من الأهالي بفضل تلك الغزوات البحرية.

وفي عام ١٥١٠م سقط ميناء طرابلس في يد الأسبان بعد صراع ومعركة دامية استشهد فيها زهاء ستة آلاف من الأهالي، واهتم الأسبان بتحصين المدينة، فجددوا بناء قلعتها، وبنوا حول المدينة سوراً، وأخذوا منها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط. وفي عام ١٥١٣م تخلى الإمبراطور شارل الخامس عنها لنائبه بجزيرة صقلية، فغدت مدينة طرابلس تابعة لصقلية إدارياً، وبذل نائب الملك جهوداً كبيرة في سبيل تعمير المدينة وتشجيع المهاجرين الصقليين على الاستطيان فيها، وذلك بمنحهم الأراضي الزراعية وإعفائهم من الضرائب [١].

(١) د/ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق، ١٩٦٩، ص ٧-١٢.

على أن الإمبراطور شارل الخامس لم يلبث أن تنازل عن طرابلس عام ١٥٣٠م لفرسان القديس يوحنا، تلك المنطقة الدينية العسكرية التي أنزلت إلى جزيرة مالطة بعد أن طردها العثمانيون من جزيرة رودس عام ١٥٢٢م. وقد تنازل الإمبراطور لفرسان القديس يوحنا عن طرابلس تعويضاً لهم عن الخسائر التي تكبدوها بعد أن أرغمهم الأتراك على إخلاء رودس هذا من جهة، ولكي يجد فيهم من جهة أخرى سنداً قوياً لحملاته على الشواطئ الإفريقية، وحاجزاً منيعاً ضد التوسع البحري العثماني وتقدمهم نحو الغرب، ووسيلةً فعالة للدفاع عن طرابلس ذاتها. ولم يطلب الإمبراطور من الفرسان مقابل إعطائهم طرابلس سوى مبلغٍ سنوي من النقد الذهبي، إلى جانب التزامهم بمساندة أسبانيا في كل معاركها ضد المسلمين. ولما كان هؤلاء الفرسان قد تفرَّغوا لمحاربة المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فقد رحَّبوا بالنزول في طرابلس ليُحكموا السيطرة على طرق الملاحة بين الحوضين الشرقي والغربي لهذا البحر، بالإضافة إلى تهديد السفن الإسلامية من شواطئ إفريقية الشمالية حتى البسفور.

واشتدت غارات الأسبان على تونس، حيث كان أمراء بني حفص يتولون الحكم، وضغط الأسبان أيضاً على الجزائر، ولم تكن الدولة الزيانية من القوة بحيث تستطيع رد الغزو الأجنبي عن البلاد، فعقدت صلحاً مع الأسبان عام ١٥١٢م اعترفت فيه باستيلاء الأسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر. وفي عام ١٥١٦م أرسل الأسبان حملة للاستيلاء على الجزائر، ولكن أهل الجزائر بقياد عروج تمكَّنوا من صدِّ هذه الحملة والقضاء عليها[1].

وكان المغرب الأقصى (مراكش) هدفاً طبيعياً للحملات البرتغالية، لكونه

(١) د/ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق ١٩٦٩، ص١٣-٢١.

حلقة في طريق توسعهم صوب غـرب إفريقية . ومع ذلك فإنه لم يسلم من اعتداءات الأسـبان وحملاتهم أيضـاً، وكانت هذه الحملات أشـبه بغارات القـراصنـة التي تسـتـهــدف السلب والنهب. وفي عـــام ١٤١٦م احـتل البرتغاليون ميناء سبتـة وقاموا بحملة على طنجة عام ١٤٣٧م، ولكن الغزو البرتغـالي للمغرب الأقصى لم يتـسع نطاقه إلاّ في الثلث الأخيـر من القرن الخامس عشر، وشمل في هذه الفتـرة موانئ البحر المتوسط والأطلنطي على السواء .

وفي مطلع القرن الســادس عشر قـامت في مراكش دولة عربيـة قوية هي دولة الأشراف السعـديين (١٥٠٩م-١٦٥٨م)، وكان قيامها رد فعـل مباشر لتوغـل البرتغـاليين في منطقة الســوس على الأطلنطي، حيث أفـلت زمام المنطقـة من يد المرينيين الذين ضـعف سلطانـهم وسعى إليـهم الانحـلال. وكانت الدعوة التي قـامت على أساسها الدولة الجديـدة هي طرد البرتغاليين من منطقة السوس تمهيداً لطردهم من البلاد كلها(١) .

تلك كانت أوضـاع العالم العربي - سواء في المشـرق أو المغرب - أوائل القرن الســادس عشر، أي قـبيل زحف الأتراك العثـمانيين وضمـهم البلاد العربية - باستثناء مراكش- إلى إمبراطوريتهم .

(١) سرعان ما تألفت حكومة شبيهة بالحكومات التـحريرية في منطقة السوس على رأسها أبو محمد ابن عبدا أول السعديين، وتألف جيش التحرير وبدأ القتال بينه وبين البرتغاليين عام ١٥١١م، وأحـرز السعـديون انتصـارات مـتواليـة في الداخل، إلى أن تولى الأمـر السلطان أبو عبـد ا الشيـخ، واستطاع أن يستـأصل البرتغـاليين ويطوح بهم في المحـيط عام ١٥٤١، ثم اسـتؤنف زحفـهم إلى الشمـال، واستطاعـوا أخيـراً الاستـيلاء على البـلاد كلها وتخليص مـعظم المدن الساحلية من يد البرتغاليين.

- انظر: عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ٧٤-٧٥.

اختلاف المؤرخين حول تفسير الاتجاه العثماني نحو العالم العربي:

لقد سبق القول أن الدولة العثمانية حتى مطلع القرن السادس عشر كانت تقوم على أرض أوربية في البلقان بصفة رئيسة، إلى جانب الأناضول. فكانت الدولة العثمانية وقتئذ دولة بلقانية أناضولية، كما كانت الولايات العثمانية في البلقان هي أهم ولايات الدولة. وظلت العاصمة العثمانية تنتقل بين الأناضول والبلقان حتى استقرت في القسطنطينية (أو إستانبول) على طرف الأرض الأوربية الشرقية. وفي عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢م-١٥٢٠م) حدث انقلاب في استراتيجية التوسع العثماني، فتوقف زحف العثمانيين صوب الغرب أو كاد، واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً في قلب المشرق العربي[١].

ويختلف المؤرخون في تفسير هذا الاتجاه العثماني نحو العالم العربي:

أولاً : هناك فريق من المؤرخين يفسر تحول العثمانيين عسكرياً نحو المشرق العربي بالقول إن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وإنه كان عليها في أوائل القرن التالي أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع. وبعبارة أخرى يرى هذا الفريق من المؤرخين أنه كان المتعذر على الدولة العثمانية أن تتوغل في فتوحاتها في وسط أوربا بعد المدى الذي وصلت إليه عندما ارتقى عرشها سليم الأول.

وهذا التفسير لايقبله بعض الباحثين على علاته؛ لأن السلطان سليمان

(١) د/ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١٠٠.

القانوني (١٥٢٠م-١٥٦٦م) الذي خلف أباه سليم قد أوغل في فتوحاته في قلب القارة الأوربيـة، فاستـولى على بلغراد واكتـسح سهول المجـر وانتزع سبعـة أعشار من النمسا ووصل إلى أسـوار فيينا، كما سـبق أن طرد فرسان القديس يوحنا من جـزيرة رودس وضم الجزيرة إلى الممـتلكات العثمـانية، وواصل خلفاؤه سياسة التوسع في الجبهة الأوربية .

ولا بد من الإشـارة إلى أن أصحـاب نظرية التـشبع العـثمـاني في أوربا يسلِّمون بأن الفتوحات العـثمانية لم تنقطع تماماً من الجبهة الغـربية بعد عهد السلطان سليم الأول، إلا أنهم يرون أن مركز الثقل في التـوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشـرق منذ أوائل القرن السادس عشر، حتى أنه يمكن القول بأن موقف الدولة العثمـانية في الجبهة الغربية كان موقـفاً دفاعياً أكثر منه هجومياً .

ثانياً : هناك فريق ثان من المؤرخين يربط هذا التحول العـسكري العثماني نحو الشرق الإسلامي بالأحداث المحلية التي كانت تدور وقتذاك في المشرق العربي أو حـول أطرافه، وتتـمثل هذه الأحداث في قـيام الدولة الصـفوية الشيعيـة في فارس بغزو العراق ومحاولتها نـشر المذهب الشيعي في المناطق المجاورة، مما أرغم العـثمـانيين على الخروج لحمـاية آسيـا الصغرى خـاصة والعالم السني عامة من الزحف الشيعي[(١)] .

ويرى أصحاب هذا الرأي أن مـوقعة جالديران عـام ١٥١٤م التي انتصر فيها السلطان سليم علـى الشاه إسماعيل لم تكن حاسمة، كـما أن انسحاب سليم من الأراضي الفـارسية عـقب هذه المعركـة مبـاشرة أعطى الصـفويين الفرصة لامتصاص الصدمـة، فظلت دولتهم قوية وتسعى لإزالة آثار الهزيمة

(١) د/ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١١٠ .

وتكوين جبهة ضد العثمانيين، وصار من المتوقع أن تحاول من جديد بسط نفوذها على شمال العراق، بل وعلى بلاد الشام، للوصول إلى البحر المتوسط والاتصال مباشرة بأوربا. ومن ثم ، ففي أعقاب جالديران أخذ جوٌ من الركود المشوب بالتحفُّز يخيم على العلاقات بين الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية، وأصبح من الواضح أن هاتين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين في حاجة إلى ميدان جديد تتصارعان فيه، ولم يكن هذا الميدان سوى المشرق العربي. وكان من المؤكد أن نجاح إحدى الدولتين في الاستيلاء عليه قبل الأخرى، سوف يكسبها قوةً وعزةً وجاهاً عريضاً .

وبرز المؤرخ أرنولد توينبي **Toynbee** في مقدمة أصحاب هذا الرأي، إذ يعتقد أنه حتى نشوب النزاع العثماني الفارسي كانت آسيا الصغرى وفارس تؤلفان عالماً واحداً تسوده الثقافة الفارسية. وفي داخل هذا العالم كان المذهب السني يعيش في سلام جنباً إلى جنب مع المذهب الشيعي، ولكن حركة الشاه إسماعيل الصفوي في محاولة نشر المذهب الشيعي بين القبائل التركمانية في شرقي الأناضول، أثار السنة هناك، كما أثار المسؤولين في إستانبول، فقام النزاع بين الدولتين الكبيرتين السنية والشيعية، وهذا النزاع قسَّم العالم الفارسي الموحد في ثقافته وفي اتجاهاته الفكرية إلى عالمين متنافرين أشد النفور: عالم شيعي صفوي، وعالم عثماني سني. ومن هنا فإن الشاه إسماعيل الصفوي يتحمل - من وجهة نظر توينبي- مسؤولية انقسام العالم الفارسي.

ويمضي توينبي في شرح نظريته التي أسماها « انقسا م العالم الفارسي» فيقول: إن الموقف العسكري بعد موقعة جالديران (١٥١٤م) كان مائعاً، فهو لم يؤد إلى انهيار إحدى الدولتين المتنازعتين، بل اتضح لهما أن سقوط

إحداهما مباشرةً أمر متعذر، وأن الصراع بينهما من الصعب حصره داخل فارس وحدها أو آسيا الصغرى وحدها، بل لا بد أن يمتد إلى المناطق المجاورة. وبذلك يعتبر توينبي أن استيلاء العثمانيين على الشام ومصر والعراق بل حتى اليمن ليس سوى حلقة من حلقات الصراع بين العثمانيين والصفويين[1].

ثالثاً : هناك فريق ثالث من المؤرخين يفسر التحول العسكري العثماني نحو العالم العربي في أوائل القرن السادس عشر، بأحداث عالمية وقعت حول أطراف العالم العربي، سواء الشرقية أو الغربية، ويقصد بهذه الأحداث زحف الاستعمار الأوربي على جناحي العالم العربي، وتصدي العثمانيين لهذا الزحف لمنع «إطباق فكي الكماشة الأوربية على دار الإسلام». وكان الفك الأول - ممثلاً في الاعتداءات الأسبانية والبرتغالية - قد أخذ يهدد عرب المغرب ويسعى لاحتلال بلادهم وانتزاع السيطرة على مياه البحر المتوسط من أيدي العرب والمسلمين، في الوقت الذي راح الفك الثاني- ممثلاً في الزحف البرتغالي - يطرق أبواب المشرق العربي، بعد أن التف حول إفريقية وشرع في احتكار الجانب الأكبر من تجارة الشرق وتحطيم قوة العرب وتجارتهم في البحار الشرقية، واستولى على قواعد ومحطات عند مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي[2]، بل حاول التسلل إلى داخل البحر الأحمر، أملاً في النزول إلى الحجاز وانتهاك حرماته المقدسة .

ويرى أصحاب هذا الرأي أن السلطان العثماني سليم الأول كان أكثر تفهماً للوضع الدولي وأخطاره من الشاه إسماعيل الصفوي، فقد شعر

(١) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٤١ .

(٢) ابن زنبل أحمد الرمال، آخرة المماليك في مصر، ص ٨٢٦.

سليم بالخطر الكبير الذي يهدده إذا ما انطبق فكا الكماشة الأوربية على دار الإسلام، وقد غدا الفكان قويين وقادرين على الإطباق، فكان عليه أن يبذل جهداً مستميتاً لمنع إطباقهما بالاستيلاء على البلاد العربية واحتلال المراكز الإستراتيجية الضرورية. ووجد السلطان تشجيعاً من جانب علماء المسلمين السنيين، الذين رأوا في وحدة دار الإسلام تحت راية سلطان واحد مثلاً أعلى للحكم الإسلامي المثالي. وكان سليم - في اعتقاد أصحاب هذا الرأي- عملياً وحكيماً في قراره الذي اتخذه بالقضاء على دولة المماليك وضم إمبراطوريتهم إلى أملاكه، وذلك بعد أن أظهرت هذه الدولة عجزها عن مواجهة البرتغاليين. وقد أدرك سليم - كما أدرك غيره من المسلمين - أنه السلطان المسلم السني الوحيد القادر على حماية الحرمين الشريفين من «الكفر والهرطقة».

فتح بلاد الشام و مصر:

منذ نشأة الإمارة العثمانية أواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الأناضول واتساع رقعتها تدريجياً، اتسمت علاقتها بالود مع الدولة المملوكية، وتبادل سلاطينهما الهدايا والتهاني في المناسبات المختلفة. ولكن في القرن الخامس عشر تاخمت حدود الدولة العثمانية حدود الدولة المملوكية في الشام، مما أوجد احتمال التصادم بينهما، علاوة على أن خروج العثمانيين إلى البحر المتوسط جعل احتمال التصادم أمراً مؤكداً بسبب سيطرة المماليك النسبية في هذا البحر[١].

والواقع أن العلاقات العثمانية المملوكية تأرجحت بين التعاون والنزاع،

(١) د/ عبد الكريم غرايبة، مقدمة في تاريخ العرب الحديث، دمشق ١٩٧٠، ص ٧٥-٨٥.

فمع الأخطار ظهر الاتجاه نحو التعاون، ومن ذلك إغارة تيمور لنك على العراق وأطراف الدولة المملوكية، ووصوله إلى الرها عام ١٣٨٧م وتخريبها، ثم تقدمه إلى ملطية الخاضعة للسلطنة المملوكية، مما جعل أمير سيواس بآسيا الصغرى يطلب من السلطان المملوكي برقوق (١٣٨٢م-١٣٩٦م) والسلطان العثماني بايزيد الأول (١٣٨٩م-١٤٠٢م) مساعدتهما ضد هذا الخطر المشترك. ومن أجل ذلك تمكن السلطان المملوكي من تكوين جبهة تضم الدولة المملوكية والدولة العثمانية تقفان في مواجهة هذا الخطر المشترك .

غير أن هذا الموقف تغير بعد وفاة السلطان برقوق حين استولى السلطان بايزيد الأول على ملطية عام ١٣٩٩م، ثم هزيمة بايزيد في أنقرة وأسره عام ١٤٠٢م، مما جعل السلطان فرج بن برقوق (١٣٩٦م-١٤١٢م) يعدل عن فكرة التحالف الدائم بين الدولتين.

ولا بد أن العثمانيين قد شعروا بالقلق نتيجة استيلاء المماليك في عهد الأشرف برسباي (١٤٢٢م-١٤٣٨م) على جزيرة قبرص عام ١٤٢٩م، ومع ذلك فإن أنباء انتصارات العثمانيين في أوربا كانت تقابَل بابتهاج وسرور في مصر باعتبارها انتصارات للإسلام. وعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣م في أيدي العثمانيين، احتُفل بهذه المناسبة في مصر، وأرسلت التهاني إلى السلطان العثماني محمد الثاني أو الفاتح (١٤٥١م-١٤٨١م).

ومع تذبذب العلاقات العثمانية المملوكية جرى صراع على النفوذ حول إمارة ذي القدر أو أمارة ألبستان[١] ، التي تقع شمال بلاد الشام وجنوب

(١) سميت هذه الإمارة بألبستان نسبة إلى عاصمتها، وسميت كذلك بإمارة ذي القدر أو القدرية باسم أسرة تركمانية منذ حوالي منتصف القرن الرابع عشر.
انظر : د/ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ٥٩.

شرق آسيا الصغرى، وتمتد على الفرات الأعلى بين مرعش وملطية، وهي أشهر الإمارات التركمانية العديدة التي نشأت في مناطق الثغور بسبب تجمع القبائل التركمانية فيها، وكانت هذه القبائل قد اندفعت منذ القرن الحادي عشر في أواسط آسيا بضغط المغول المتجهين غرباً نحو مناطق الثغور في آسيا الصغرى، وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الإمارة العازلة بين منطقتي نفوذهم، فأيد كل منهم أميراً تركمانياً ومارسوا النفوذ من خلاله، ونتج عن هذا اقتتال أفراد الأسرة الحاكمة في إمارة ذي القدر، وتأزُّم في العلاقات المملوكية العثمانية.

ومما زاد هذه العلاقات تأزماً إيواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين، مثل الأمير بهم ابن السلطان محمد الثاني، الذي ثار على أخيه بايزيد الثاني (١٤٨١م-١٥١٢م) حين خلف أباه في السلطنة. ولما هزم بهم اتجه إلى الشام وانحدر جنوباً حتى بلغ القاهرة عام ١٤٨٢م لاجئاً سياسياً لدى السلطان الأشرف قايتباي (١٤٦٧م-١٤٩٦م)، وكان بايزيد ينتظر من سلطان مصر أن يمنعه من الإقامة فيها، إلا أن قايتباي أكرم وفادته ، فغضب عليه بايزيد، وهكذا تطورت العلاقات بين المماليك والعثمانيين، إلا أن القتال لم ينشب بينهم إلا عام ١٤٨٥م، حين أغارت الجيوش العثمانية فجأة على بلاد الشام واستولت على بعض المواقع التي كان قايتباي قد نازع بايزيد الثاني السلطة عليها. وقابل قايتباي عمل السلطان العثماني بالمثل، فأرسل جيشاً إلى بلاد الشام أحرز عدة انتصارات واستولى على كثير من الغنائم والأسرى، ولكن الحرب انتهت بإبرام الصلح عام ١٤٩١م بين الطرفين لاضطراب أحوال مصر الداخلية وتفشي القحط في البلاد، ولم يرفض بايزيد الصلح حتى يتفرغ لفتح بلغراد.

واتجهت العلاقات العثمانية المملوكية نحو التحسن في مطلع القرن السادس عشر، بسبب تهديد البرتغاليين والصفويين لكل من الدولتين. فقد ترتب على ازدياد الخطر البرتغالي في البحر الأحمر، مع ضعف إمكانيات المماليك العسكرية والمالية، أن طلب السلطان الغوري (١٥٠١م-١٥١٦م) العون من العثمانيين، فأرسل هؤلاء إليه ثلاثين سفينة تحمل ثلاثمائة مدفع وأخشاباً، ولكن فرسان القديس يوحنا في رودس استولوا عليها. ورغم ذلك فقد أمر السلطان بايزيد الثاني أن يرسل إلى الغوري كل مايطلبه لإنشاء الأسطول اللازم هدية له دون أي مقابل، وقد وصلت هدية العثمانيين إلى القاهرة في يناير ١٥١١م، ثم نُقلت إلى السويس وكانت عبارة عن ثلاثمائة مدفع وثلاثين ألف سهم وأربعين قنطاراً من البارود وألفي مجداف من الخشب، وغير ذلك من المواد اللازمة لصناعة السفن. وأرسل العثمانيون كذلك عدداً من ضباط البحرية إلى مصر للإشراف على سفنها، ويبدو أن قراصنة عثمانيين من غربي الأناضول قد استخدموا في الأسطول المملوكي[١].

وكان الخطر الآخر الذي قرب بين العثمانيين والمماليك في مستهل القرن السادس عشر هو الخطر الصفوي، فقد أثار تبني الصفويين للمذهب الشيعي قلق جيرانهم من عثمانيين ومماليك، خاصة وأنهم حاولوا نشره بين القبائل التركمانية في شرقي الأناضول، زد على ذلك أن الشاه إسماعيل حاول الاتصال بالأوربيين للتحالف معهم، فقد عثر المماليك على مكاتبات بينه وبين البنادقة بهذا المعنى، مما كان يهدد مصالح العثمانيين والمماليك على السواء.

---

(١) د/ عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٧٣، ص ٦٩-٧٠.

openkandil.com

والواقع أن اتجاه التقارب هذا بين العثمانيين والمماليك لم يستمر طويلاً، ويرجع ذلك إلى موقف السلطان الغوري أثناء الحرب التي قامت بين السلطان سليم الأول وبين الشاه إسماعيل الصفوي، والتي انتهت بهزيمة الأخير في جالديران عام ١٥١٤م. فقد وقف الغوري موقفاً غير ودي من العثمانيين دون أن يفيد هذا الموقف الشاه إسماعيل على الإطلاق، فهو لم يلتزم الحيدة التامة بين العثمانيين والصفويين، وهو لم يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطان سليم، وكان في استطاعته لو اتخذ الموقف العدائي أن يتقدم لمساعدة الصفويين وقت توغل الجيش العثماني في الأراضي الفارسية، وكان في استطاعة الجيش المملوكي أن يزحف في أثر الجيش العثماني في اتجاه فارس وأن يحضره بين قوتين معاديتين: الجيش الصفوي من الأمام، والجيش المملوكي من الخلف، مما يعرض الجيش العثماني لخطر الإبادة. وكان في استطاعة الجيش المملوكي أن يقطع على الجيش العثماني خط الرجعة إلى بلاده، أو أن يتقدم في الأراضي العثمانية والجيش العثماني بعيد عنها، وتكون النتيجة أن هذا الجيش يعجز عن الدفاع عن بلاده وعن الإغارة على فارس، ولكن لم يحدث شيء من هذه الخطط العسكرية.

ويفسر بعض المؤرخين عزوف المماليك عن دعم العثمانيين أثناء حربهم ضد الصفويين، بأن المماليك كانوا ضعافا من الناحية العسكرية، ثم إنهم يخافون من ازدياد قوة العثمانيين، والحقيقة أن المماليك حاولوا أثناء ذلك التفاهم مع الصفويين. وسواء كان الغوري قد تحالف مع الشاه إسماعيل على أساس أن يقدم كل منهما المساعدة للآخر ضد السلطان سليم حسب الإشاعة التي راجت وقتذاك، أم أن الغوري اكتفى بتأييد شكلي بذله للشاه فقد اعتبر السلطان العثماني موقف السلطان المملوكي عدائياً، واتهم سليم

السلطات المملوكية بتعرضها لقوافل المؤن العثمانية المتجهة نحو الجبهة الصفوية، كما اتهم الغوري بإصداره الأوامر إلى الأمير علاء الدولة حاكم إمارة ذي القدر المشمولة بحماية دولة المماليك بمنع تقديم المؤن والأغذية اللازمة للجيش العثماني أثناء توغله في فارس، مما أعاق زحفه بعض الوقت، واشتد حنق السلطان سليم على هذا التصرف من جانب الأمير علاء الدولة، وعزم على الانتقام منه[1] .

وفي طريق عودته من فارس أصدر السلطان سليم أوامره إلى سنان باشا بمعاقبة الأمير علاء الدولة على سلوكه، وهكذا قتل علاء الدولة العجوز في المعركة، ومنحت إمارته إلى ابن أخيه علي الذي صحب السلطان سليم في الحملة الفارسية، واعتبر ذلك عملاً عدائياً صريحاً موجهاً نحو الدولة المملوكية .

وكان طبيعياً أن يشعر الغوري بتحرج الموقف ، فترك بالقاهرة ابن أخيه طومان باي في منصبه «نائب الغيمة» وخرج بجيوشه إلى الشام مصطحباً معه قاضي قضاة مملكته والخليفة العباسي، وهو وقتذاك المتوكل على ا أبو عبدا محمد بن المستمسك با . وتقدم الغوري إلى حلب في أوائل صيف عام ١٥١٦م متظاهراً بالرغبة في إصلاح ذات البين، ولكن سليمان كان قد بلغ الأرض السورية فأغلظ في معاملة الرسول الذي أرسله الغوري إليه لطلب الصلح، ولم يجد وسيلة لإذلاله خيراً من أن يأمر بحلق شعر رأسه ولحيته، وبإعادته على حمار أعرج يحمل إلى سيده نبأ إعلان الحرب. وعلى هذا النحو أصبحت الحرب واقعة لا محالة بين الفريقين.

واشتبك الجيشان في ٢٤ أغسطس ١٥١٦م عند مرج دابق شمالي حلب،

(١) د/ السيد رجب حراز، العالم العربي الحديث، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٧.

واستطاع فـرسان المماليك أن يحرزوا نـصراً جزئياً في أول المعـركة ، ولكن هذا النصـر لم يأت بالثمـرة المرجوة، لتفـشي الانقسـامات والخـلافات بين قـيادات المـماليك، وخيـانة كل من خـاير بك نائب حلب ، وجـان بردي الغزالي نائب حماة، وانسحابهمـا من جيش الغوري، وكان خاير والغزالي على اتصال سري بالعثمانيين قبل المعركة. واستخدم الجيش العثماني المدافع والبنادق وسواها من الأسلحة ذات المرمى البـعيد، كما استـخدم البارود و« المدافع الكبار على عـجل تجرها الخيول» ، بينما كـان الجيش المملوكي يضم جماعات من البدو لا عهد لهم بمثل هذه الأسلحة، متشبثين بالنظرية القديمة التي تعتبـر البطولة الشخصية العـامل الفاصل في القتال. وكـما كان منتظراً فقد أوقعت المدفعية العثمـانية بجيش المماليك، فاختل نظامه وسقط الغوري صريعاً من صـهوة حصانه لهول الـصدمة وضاعت جثـته بين آلاف الجثث، وبذلك تم النصر للسلطان سليم[١] .

وبعد بضعة أيام من معركة مرج دابق دخل سليم حلب، واستقبله الخليفة العباسي المتوكل على ا ، الذي كان بصـحبة الغوري، وبقي في حلب قبل المعـركة وخطب باسم السلطان سلـيم في صلاة الجـمعـة على منابر حلب، ولقب «خادم الحرمين الشريفين»، وكـان يلقب به السلاطين المماليك بحكم تبعـية الحجـاز لمصر. ثم زحف العثـمانيون جنوباً لمطـاردة فلول المماليك، فاحـتلوا دون عناء حماة وحـمص ودمشق، وكـان المماليك المهزومـون قد عينوا جان بردي الغزالي نائباً من قبلهم على دمشق ، إلا أنه هرب بدوره إلى مصر .

وأقام سليم في دمـشق قرابة شـهرين، قدم إليـه خلالهـما زعمـاء البلاد

(١) د/ عبد الكريم غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث، ص ٢٢.

فروض الطاعة والولاء، وكان على رأسهم قضاة المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف ونائب قلعة دمشق المملوكي، وقصده أمراء لبنان وألقى نيابة عنهم الأمير فخر الدين المعني الأول خطبة وصف فيها السلطان سليم بأنه «ناصر الشريعة الغراء» ، وقائد الأمة الطاهرة الزاهرة، سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين . . . الذي بيده الأمر. . .» .

ويبدو أن سليماً كان لا يريد أن بادئ الأمر متابعة زحفه على مصر، فبانتصاره في معركة مرج دابق حطم التحالف أو إمكانية قيامه بين المماليك والصفويين، بالإضافة إلى احتلاله بلاد الشام. ثم أن حملته على مصر ستعرض دون شك لمخاطر اجتياز صحراء سيناء ، بما في ذلك تعرضه لهجمات البدو، وامتداد خطوط مواصلاته. وكان المماليك يجمعون قواتهم في مصر برئاسة «نائب الغيبة» طومان باي، الذي بايعه والد الخليفة العباسي المحتجز لدى العثمانيين. وعلاوة على ذلك فإن زحف العثمانيين على مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استغلال ذلك وتهديد أراضي الدولة العثمانية.

ولهذه الأسباب أراد سليم أن يعقد الصلح مع طومان باي، فأرسل إليه وهو في دمشق كتاباً يطلب منه فيه الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، على أن يكون طومان باي نائباً عن سليم في حكم البلاد حتى مدينة غزة، وأن يذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة. ولكن طومان باي - بتحريض أمراء المماليك - رفض عوض التبعية هذا، وإزاء ذلك وبإلحاح من خايربك، الذي خشي على حياته من بقاء السلطنة المملوكية، وطمع في حكم مصر تابع سليم زحفه جنوباً فاستولى على يافا وغزة والعريش ، ثم

obeikandi.com

عبر سيناء ودخل الدلتا زاحفاً إلى بلبيس ومنها اتجه نحو القاهرة[١] .

واختلف شعور المصريين نحو العثمانيين عن شعور أهل الشام الذين رحبوا بالفاتحين الجدد، فقد أيد المصريون طومان باي في استعداداته لصد العثمانيين، واستعرض طومان باي قواته وأسلحته ليستعيد ثقة الأهالي في قوة المماليك، إلا أن هذه الاستعدادات لم تفد المماليك شيئاً، ففي يناير ١٥١٧م التقت القوات العثمانية مع القوات المملوكية في معركة الريدانية بين المطرية والجبل الأحمر، وأنزلت المدفعية العثمانية بالمماليك هزيمة شديدة ، ودخل العثمانيون مدينة القاهرة وخُطب للسلطان سليم على منابرها. ورغم ذلك لم يتسرب اليأس إلى قلب طومان باي، وبذل أقصى جهده للدفاع عن البلاد، وحدث قتال عنيف في شوارع القاهرة لمدة ثلاثة أيام، وظفر طومان باي ببعض انتصارات محلية مؤقتة، ولكن دون جدوى. وعندئذ حاول سليم وقف القتال وعرض على طومان باي حكم الصعيد تحت السيادة العثمانية، إلا أنه رفض، إذ كان لايزال يحدوه الأمل في إنقاذ البلاد. ولما انتهى القتال بهزيمة المماليك اضطر طومان باي إلى الفرار إلى الدلتا، والتجأ إلى شيخ بدو البحيرة، إلا أن الأخير عندما أيقن بزوال دولة المماليك سلمه غدراً إلى أعدائه، فأمر السلطان سليم بقتله فشنق في ١٣ أبريل ١٥١٧م على باب زويلة. وهكذا طويت صفحة دولة المماليك ، وتحولت مصر والشام إلى ولايتين عثمانيتين[٢] .

ولم يمكث السلطان سليم في مصر مدة طويلة، فلم تتعد إقامته بها ثمانية

(١) المرجع السابق، ص ٢٣-٢٥.

(٢) محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٤، جـ٥، القاهرة، ١٩٦٠، جـ٥، ص١٦٦-١٧٢.

شهور قضاها في دراسة أحوال مصر الداخلية بنفسه، ولم تقتصر إقامته على القاهرة وحدها، بل زار بعض المدن المصرية كرشيد والإسكندرية، حيث استعرض بعض قطع الأسطول العثماني. وجمع السلطان سليم أثناء إقامته بمصر بعض المعلومات عن الأحوال الإدارية والمالية في البلاد حتى يسترشد بها آل عثمان في حكم مصر وإدارتها، ومن أعماله وهو في القاهرة إصدار العفو عن البقية الباقية من المماليك، ليحتفظ بهم كعنصر هام في إدارة البلاد، ولذا أصدر أوامره بعدم التعرض لهم ولممتلكاتهم، وباستمرار صرف مرتباتهم. كذلك أرسل عدداً من أصحاب الحرف والصناع إلى استانبول للمساهمة في أنشطتها، كما فعل سابقاً حين احتل تبريز عاصمة الصفويين. وبعد أن عين خاير بك المملوكي والياً على مصر غادر سليم البلاد في ١٠ سبتمبر ١٥١٧م عائداً إلى استانبول، وكان قد سبقه إليها وبناء على أوامره الخليفة العباسي المتوكل على ا وبقي هناك حتى وفاة سليم عام ١٥٢٠م فعاد إلى مصر وظل مقيماً بها حتى وافته المنية[١].

ولقد قيل إن السلطان سليم الأول أكره الخليفة العباسي المتوكل على ا على التنازل له عن الخلافة، ولكن يبدو أن هذا القول ليس صحيحاً، فالمؤرخ المصري المعاصر للفتح العثماني، وهو ابن إياس، لم يذكر شيئاً عن هذه المسألة الهامة، كما لم ترد في الرسائل التي بعث بها السلطان سليم إلى ابنه سليمان في استانبول أثناء العمليات الحربية أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان. والرأي الغالب اليوم هو أن السلاطين العثمانيين لم يعيروا لقب الخليفة أي اهتمام جدي بعد فتحهم لمصر، لأن الخلافة كانت قد فقدت مكانتها منذ أحقاب طويلة، وكان الخليفة العباسي في القاهرة مجرداً من كل

(١) نفس المرجع، ص ١٨٠.

سلطة فعليـة، ولم يبدأ اهتمـام السلاطين العـثمانيين بلقب خليـفة إلا حين اشتد ضغط بـعض الدول الأوربية على الدولة العثمانية وممتلكاتـها، فاتخذ السلاطين من الخلافة وسيلة لمقاومة ضغط هذه الدول[(١)].

خضوع الحجاز للسيادة العثمانية :

تلا سقوط مصر في أيدي الأتراك العثمانيين عام ١٥١٧م امتداد سيادتهم إلى الحجـاز امتداداً سليـماً، فالحـجاز بسبب الحـماية التي توفرها له مـصر والعـون الذي تمده به، ممثلاً في الأمـوال والغلال التي ترسلهـا لفقـراء مكة والمدينة والمرتبات والهدايا للأشـراف كان يتبع مصر تبعيـة تلقائية، بمعنى أنه لم يكن يرتبط بدولة معينة في مصر، بل كان يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها.

وكان يتـولى حكم مكة المكرمة- قلب الحجـاز ومركز الأرض المقـدسة- الشريفـيون أو الأشراف الحسـينيون، الذين ينتـمون إلى علي بن أبي طالب زوج ابنة رسول ا فاطمة الزهراء . ولم يكن سلطان مصر في عهد المماليك هو الذي يختـار شريف مكة، بل كان كـبار الأشراف يختـارونه من بينهم ، ويطلبون إلى سلطان مصر تثبيته في منصبه[(٢)].

وعلى أواخر أيام دولة المـماليك في مصـر ساءت العلاقـات بين أشراف مكة والسلطان الغـوري، فقـد أغضب الأشراف فـشل المماليك فـي إيقاف التحـول التجـاري الذي نجم عن اكتشـاف طريق رأس الرجاء الصـالح عام ١٤٩٨م، وهو التحول الذي أدى إلى حـرمان جدة من مواردها الجمـركية. ولذلك وقعت بعض الاضطرابات في الحجاز ضد الحكم المصري المملوكي،

(١) ابن زنبل، المرجع السابق، ص٣٧.

(٢) د/ عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص ٣٠.

obeikandl.com

رد عليها الغوري باعتقال بعض القضاة ورجال العلم الحجازيين في القاهرة. ولما دخل السلطان سليم القاهرة عام ١٥١٧م ـ أفرج عن هؤلاء المعتقلين، فعرضوا عليه أن يكتب إلى أمير مكة الشريف بركات بن محمد (١٤٩٥م-١٥٢٤م) داعياً إياه للدخول في طاعته، كما تعهدوا هم أنفسهم بأن يكتبوا إلى الشريف بركات بهذا الصدد.

ووجد الشريف بركات أن من الحكمة الاستجابة لهذه الدعوة وقبول السيادة العثمانية الجديدة، لحاجته أولاً إلى مساندة دولة إسلامية كبيرة كالدولة العثمانية في مواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر، وللاستفادة ثانياً من العون المالي الذي تمد به مصر أهل الحجاز، ومن جهة ثالثة لربما احتفظ العثمانيون بنظام الشرافة المتبع في حكم الحجاز، مما قد يؤدي إلى تقوية مركز الشريف بركات أمام منافسيه وخصومه، وخاصة من أسرة الأشراف .

وعلى ذلك فقد أسرع الشريف بركات بإرسال ابنه الشريف أبي نمي إلى القاهرة لكي يقدم التهاني وفروض الولاء للسلطان سليم المظفر، إلى جانب مفاتيح الحرمين الشريفين، إشارة إلى خضوع الحجاز للسيادة العثمانية. وأكرم السلطان وفادة أبي نمي وأعطاه تفويضاً بحكم والده، وقد قرئ هذا التفويض في مكة المكرمة وسط احتفال كبير .

وهكذا دخل الحجاز سليماً تحت السيادة العثمانية، وأبقى العثمانيون على نظام الشرافة أو الإمارة في الحجاز كما كان على أيام الدولة المملوكية، وأنشأوا كذلك صنجقية في جدة أقاموا عليها والياً تركياً ليكون ممثلاً للسلطان العثماني في الحجاز. وفي صلاة الجمعة الأولى بعد خضوع الحجاز للسيادة العثمانية انطلق الوعاظ في الديار المقدسة يبتهلون إلى ا أن

obeikandi.com

يضفي بركته على السلطان سليم الأول الفاتح بهذه الكلمات « انصر اللهم ابن السلطان، مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحاً مبيناً، يا مالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين» [١].

فتح اليمن:

ترتب على الفتح العثماني لمصر عام ١٥١٧م وبسط السيادة العثمانية على الحجاز، وهما إقليمان يطلان على البحر الأحمر ظهور العثمانيين في هذا البحر، حيث ورثوا تركة الدولة المملوكية المثقلة بالمشكلات، وفي مقدمتها مسألة تحول طريق التجارة العالمية من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح، والانهيار الاقتصادي الذي حدث في المنطقة العربية نتيجة هذا التحول ، والتفوق البرتغالي الساحق في منطقة الخليج العربي، ومواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر.

والواقع أنه ماكاد العثمانيون يفرغون من فتح مصر عام ١٥١٧م حتى وجدوا أنفسهم مضطرين لاتباع نفس الخطط التي كانت تسير عليها الدولة المملوكية في مدافعة الخطر البرتغالي عن البحار الشرقية، أو بالأحرى عن الحدود الجنوبية لممتلكاتهم الجديدة في المشرق العربي. فجعلوا من السويس قاعدة بحرية لعملياتهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي على نحو ما كانت عليه السويس في أواخر عهد الدولة المملوكية. وفي الوقت نفسه تطلع العثمانيون إلى قاعدة بحرية أمامية تمكنهم من مهاجمة البرتغاليين في المحيط الهندي، ومن السيطرة كذلك على البحر الأحمر وإغلاقه في وجه الدول

(١) د/ محمد أنيس، د/ السيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٥-٣٧.

الأوربية، فكانت هذه القاعدة الأمـامية هي اليمن بصفة عامـة وعدن بصفة خاصة [١].

ولقد سبق أن ذكرنا أن الحملة التي رأسهـا السلطان الغوري بقيادة حسين الكردي لنجدة سلطان جرات مظفر شاه محمود شاه، فشلت في مهمتها في الهند وعادت إلـى اليمن لتأمـينها ضـد الضغط البرتغـالي، وبدلاً من ذلك هاجم حسين الكردي السـواحل اليمنية، بيـد أن عامر بن عبـد الوهاب آخر ملوك الدولة الطاهرية في اليـمن[٢] رفض تقديم المؤن والذخـائر لأسطوله، فضلاً عن تراجعه عن وعده الذي قطعه على نفسه بالموافقة على إقامة قواعد بحرية مملوكـية على السواحل اليمنيـة، وذلك عندما استنجد بالـغوري بعد هجوم البوكيرك على عـدن عام ١٥١٣م. وتمكن حسين الكردي - بمساعدة الزيدية أعـداء السلطان عامـر - من دخول زبيد في ٢١ يـونيو ١٥١٦م، ثم توجه لاحتلال عدن ولكنه فشل في احتلالها بعد أن تلقت مساعدة عسكرية وصلتها من تعـز من الأمير عبد الملك شقيق السلطـان عامر. واضطر حسين الكردي إلى رفع الحـصار عن عدن والعـودة إلى جدة، وبعد وصـوله بقليل جاءت الأنباء بسقوط مصر في يد السلطان العثماني سليم الأول، ولـم يلبث أن دبر شـريف مكة مقـتل حـسين الكردي غـرقاً أمـام ميـناء جدة بأمـر من

(١) د/ عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص ٧١.

(٢) تعتبـر الدولة الطاهرية (١٤٥٤م-١٥١٧م) آخر الدولة السنية الجنوبية التـي كانت تتوالى الحكم في اليمن، وكـان بنو طاهر عمـال الدولة الرسولية في عـدن ولحج ، فخرجـوا عليها وأسـسوا دولتهم على أنقاضها. وقد حاول ملوك هذه الأسرة توحيد اليمن تحت سيادتهم فلم يتمكنوا من ذلك لاصطدامـهم بالأئمة الزيديـة في المنطقة الشـماليـة الجـبلية، وظلت البـلاد مقـسمـة بين الطاهريين والزيديين حتى آخر ملوك الدولة الطاهرية، وهو عامر بن عبد الوهاب. انظر : قطب الدين النهرواني المكي، البرق اليماني في الفتح العثماني، الرياض، ١٩٦٧، ص ١١-٢٧.

obeikandi.com

السلطان سليم، فهربت قواته المملوكية من الحجاز إلى زبيد في اليمن، حيث يوجد الأمير بومباي المملوكي، وثبتوا أقدامهم هناك بدعم من الزيدية، وقتلوا في ١٥ مايو ١٥١٧م السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي كان قد تحصن في تعز ، وبموته انقرضت الدولة الطاهرية ولو أن بعض أفرادها استمروا في حكم عدن لبعض الوقت .

وتولى أمر القوات المملوكية في اليمن كل من الأمير بومباي والأمير اسكندر الجركسي والأمير رمضان الرومي، وكان الأخير قائد اللاوند. وبرغم وصول الأنباء بزوال دولة المماليك فقد استأنف برمباي محاولات حسين الكردي لاحتلال اليمن، وزحف على تعز فاحتلها ولكنه قتل في كمين على طريق زبيد، وخلفه الأمير اسكندر قائداً للقوات المملوكية، إلا أن الأمير رمضان وقواته الرومية (العثمانية) الأصل أعلنوا ولاءهم للعثمانيين، فاضطر الأمير اسكندر إلى إعلان ولائه للعثمانيين أيضاً . ولما علم السلطان سليم بذلك أرسل إليه أمراً بأن يستمر والياً على اليمن تحت السيادة العثمانية، وبذا سمي اسكندر بالمخضرم لأنه تولى حكم اليمن في عهدين متلاحقين: عهد المماليك الجراكسة، وعهد الأتراك العثمانيين.

وبهذه الوسيلة امتدت السيادة العثمانية بادئ ذي بدء امتداداً سليماً إلى اليمن، إلا أن سيطرة العثمانيين هناك ظلت صورية مدة العشرين عاماً التالية، ويرجع ذلك لاضطراب أحوال اليمن ، والذي كان مبعثه وجود قوى مختلفة فيه تتصارع على النفوذ ، فهناك الولاة المحليون من اللاوند الذين قبلوا الخضوع للعثمانيين ولكنهم عارضوا استبدال باشوات عثمانيين بهم، وهناك أيضاً الزيديون بزعامة الإمام شرف الدين، ثم بقايا الأسرة الطاهرية الحاكمة في عدن. وقد شجع على هذه الفوضى ارتباك أحوال

مـصـر خلال السنـوات الثمـاني الأولى من الحكـم العثـمـاني (١٥١٧م-١٥٢٥م)، بالإضافة إلى تهديد البرتغاليين لسواحل اليمن[١].

وإزاء ذلك أرسل السلطان سليمـان القانوني (١٥٢٠م-١٥٦٦م) الوزير أو الصدر الأعظم إبراهيم باشا عام ١٥٢٤م لتنظيم الإدارة العثمانية في بلاد الشام ومصر. وفي أثناء الشهور الثـلاثة التي قضاها بمصر أعاد إبراهيم باشا تنظيم الشـئون البـحرية بميناء السـويس. وفي عام ١٥٢٥م أبحـر الأسطول المملوكي القديم من السويس لمحاولة إخضاع اليمن للنفوذ العثماني الفعلي، إلا أن الحمـلة لم تحقق نجـاحاً كـبيراً. وكـان بعد الفـتح العثـماني للـعراق (١٥٣٤م - ١٥٣٥م) أن بدأ السلطان سليمـان يهتم جلياً بشن هجـوم مضاد قوي ضد الغزو البرتغالي في البحر الأحمر.

وصدرت الأوامر إلى والي مصر سليـمان باشا الخادم ببناء أسطول جديد في السويس، وهي مهمة بدئ العمل فيها عام ١٥٣٧م وانتهى في ربيع العام التالي. وكان الأسطول يتكون من أربع وسبعين أو ثمانين سفينة من مختلف الأنواع والأحجـام، ومن عشرين ألف جندي من مصـر والشام، على حين أن بحارته كـانوا من البنادقة المقـيمين بالإسكندرية، وكـانت مهمـة الحملة مقـاومة البـرتغاليين في الـهند وتقديم المسـاعدة للقـوى الإسلاميـة هناك، بالإضافة إلى التعريج على اليمن لإصلاح مافسد من أحوالها.

وخـرج سليـمــان باشـا في يونيـو ١٥٣٨م على رأس هـذه الحـملة من السويس، واستولى في أغسطس من هذا العام على عـدن غدراً من حاكمها عامر بن داود وهو من بقايا بني طاهر، وعين على عدن أحد صناجق الحملة وهو الأمير بهرام، ثم سار إلى الهند ولكنه كسابقه الأمير حسين الكردي عاد

(١) قطب الدين النهرواني المكي، المرجع السابق، ص ٢٨-٣٥.

منها بعد قليل. وتوقف سليمان باشا في اليمن في طريق عودته لإتمام فتح السواحل اليمنية، فدخل ميناء مخا ثم انتقل منه إلى ميناء الصليف، ثم استولى على مدينة زبيد وحاول احتلال تعز مقر الإمامة الزيدية لكنه فشل، وتبع ذلك إخضاع ميناء جيزان وتحصينه، وذلك أثناء عودة الحملة إلى جدة ثم السويس[١].

وتعرف حملة سليمان باشا الخادم بالفتح العثماني الأول لليمن، لأن السلطة العثمانية هناك كانت تقوم قبلاً على ولاء الأمراء المحليين فحسب، وكان من أهم نتائج هذه الحملة :

١- خضوع منطقة السواحل اليمنية من جيزان شمالاً إلى عدن جنوباً للحكم العثماني، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت حكم الزيديين بزعامة الإمام شرف الدين.

٢- انتزاع عدن من أيدي الطاهريين وإخضاعها للسيادة العثمانية، ونقل السلطة في زبيد والمناطق التهامية من أيدي المماليك إلى أيدي موظفين عثمانيين.

وبعد عودة حملة سليمان باشا الخادم اهتم العثمانيون بتنظيم ممتلكاتهم في اليمن ودعم سيطرتهم في المناطق التي خضعت لهم، كما عملوا على بسط نفوذهم على أقاليم اليمن الداخلية، إذ إنه رغم التواجد العثماني في عدد من مدن اليمن وأبرزها زبيد فقد سيطر الزيديون بقيادة الإمام شرف الدين وابنه المطهر على جزء كبير من اليمن، وخاصة الجبال بين كوكبان وعدن، وحصنوا مدينة تعز. وفي عام ١٥٤٠م عين مصطفى النشار والياً

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧-٣٩.

على اليمن على أساس التفاهم مع الإمامة الزيدية، ونجح مصطفى النشار في مهمته وتمتع اليمن خلال ولايته (١٥٤٠م-١٥٤٥م) بالهدوء النسبي.

على أن هذا الهدوء لم يدم طويلاً، فلم يلبث أن اصطدم الولاة العثمانيون بالزيديين عندما راح الولاة يمارسون سياسة التوسع في أنحاء اليمن المختلفة، واضطر هؤلاء الولاة إلى القتال في جبهتين : جبهة شمالية ضد الزيديين، وجبهة جنوبية ضد القبائل اليمنية التي خرجت على طاعة العثمانيين في جنوب اليمن وطردتهم من عدن. ومع أن القوات العثمانية واصلت زحفها واستولت على أغلب الأقاليم اليمنية حتى وصلت إلى صعدة شمالاً ، وذلك أثناء ولاية أزدمر باشا (١٥٤٩م-١٥٥٥م)، إلا أن سيطرة العثمانيين في اليمن سرعان ما أخذت في الاضمحلال والتدهور ، كما أخذت ممتلكاتهم في الانكماش تدريجياً ، حتى أنه لم يبقَ في أيديهم سوى زبيد والتهائم [١].

وعلى ذلك فقد أرسل السلطان سليم الثاني (١٥٦٦م-١٥٧٤م) حملة كبرى عام ١٥٦٩م بقيادة سنان باشا لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن، وتسمى هذه الحملة بالفتح العثماني الثاني لليمن. وغادرت الحملة السويس في يناير ١٥٦٩م قاصدة ينبع، حيث أنزل معظم أفراد الحملة، ومن الحجاز زحفت الحملة براً إلى اليمن وأخضعت في طريقها جيزان، ثم استولت على تعز وقلعتها الحصينة، وفرضت حصاراً برياً وبحرياً على عدن مما أدى إلى سقوطها في أيدي العثمانيين. ولم يلبث أن وجه سنان باشا أنظاره صوب منطقة الهضبة اليمنية، ورغم وعورة هذه المنطقة ومناوشات اليمنيين ومهاجمتهم مؤخرة الجيش العثماني الزاحف فقد استطاع سنان باشا أن

(١) د/ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ٣٥.

يستولي على معظم جهات وسط الهضبة، ثم دخل صنعاء في ٢٦ يوليو ١٩٦٩م[١].

ولم يعد أمام سنان باشا لاخضاع اليمن إلى السيطرة العثمانية سوى المنطقة الشمالية الجبلية، ولكن المقاومة اليمنية العنيفة بزعامة الإمام المطهر بن شرف الدين، واضطرار القائد العثماني إلى توزيع جيوشه على الأقاليم اليمنية المختلفة، وعدم إرسال إمدادات من مصر إلى اليمن، كل ذلك كان من العوامل التي أرغمت سنان باشا على عقد الصلح أخيراً مع الإمام المطهر في ٣ ديسمبر ١٥٧٠م على أساس اعتراف المطهر بالسيادة العثمانية وقبوله وجود حامية عثمانية رمزية في سعدة. وبعد أن قام بتنظيم شئون اليمن وتسليم أموره إلى يهرام باشا غادر القائد العثماني اليمن عام ١٥٧١م متوجهاً إلى الأستانة[٢].

ساحل البحر الأحمر الغربي (ولاية الحبش):

أدت حملة سليمان باشا الخادم على اليمن عام ١٥٣٨م إلى سقوط عدن في أيدي الأتراك العثمانيين، ومنذ هذا الوقت فصاعداً حلت عدن ذات الموقع الاستراتيجي الهام محل جدة بالحجاز كخط دفاع أمامي وقاعدة بحرية متقدمة ضد البرتغاليين، ولو أن ذلك لم يمنع الأخيرين من التوغل في البحر الأحمر من وقت لآخر، مثلما حدث في عامي ١٥٤٠م و ١٥٤١م. ففي هذا العام الأخير قام الأسطول البرتغالي بغزوة باءت بالفشل، رغم وصول السفن البرتغالية إلى الصور، وذلك بفضل تحذير أمير سواكن على ساحل البحر الأحمر الغربي، مما جعل البرتغاليين ينتقمون منه بإحراق

(١) المرجع السابق نفسه، ص٣٧.

(٢) قطب الدين النهرواني، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٥٠.

سواكن وتخريب صهاريج المياه فيها ، على أن يؤدي ذلك إلى اضمحلال هذه المدينة التجارية المزدهرة التي كانت قد دخلت في حوزة الأتراك نتيجة لفتحهم مصر. ولقد كان في أثناء الغزوة البرتغالية للبحر الأحمر، أن أنزل إلى ميناء مصوع على الساحل الأفريقي المواجه لليمن قوة تبلغ أربعمائة جندي برتغالي.

ولمواجهة هذا الخطر البرتغالي المتزايد رأي العثمانيون ضرورة إبعاد البرتغاليين عن سواحل البحر الأحمر الغربية، حتى يتمكنوا من إخضاعها لنفوذهم مثلما أخضعوا السواحل الشرقية، مما يساعدهم على حماية البحر الأحمر من الهجمات البرتغالية. هذا بالإضافة إلى أن الاحتلال العثماني لميناء مصوع من شأنه قطع سبل الاتصال بين الحبشة والهند البرتغالية(١).

ومن ثم وبعد انتهاء ولاية أزدمر باشا في اليمن (١٥٤٠م-١٥٤٥م) وعودته إلى استانبول بطريق مصر أحسن السلطان سليمان القانوني استقباله وولاه أمر ميناء سواكن، حتى يبسط السيطرة العثمانية على امتداد ساحل البحر الأحمر الغربي، فعاد أزدمر إلى مصر حيث جمع جيشاً من ثلاثة آلاف جندي وزحف بهم براً من مصر فاحتل النوبة السفلى الواقعة بين الشلالين الأول والثالث، مستفيداً من الصراع بين القوى المحلية . وأقيمت الحاميات العثمانية في أسوان وأبريم وغيرهما، وعُين أحد الكشاف المماليك لإدارة هذه المنطقة التي عرفت باسم بربرستان. ثم تقدم أزدمر باشا باتجاه ساحل البحر الأحمر الغربي ليقيم فيه قاعدة ضد البرتغاليين من جهة وضد الأحباش من جهة أخرى، فاحتل عام ١٥٥٧م ميناء مصوع، وفي العام التالي زحف من مصوع صوب الغرب فاستولى على دباروا Dabarwo

(١) قطب الدين النهرواني، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٥٠.

عاصمة إقليم ميدري بحري[١] Medri Bahri وبنى فيها حصناً من الحجر أنزل فيه حـامية عثمانـية. ثم قاد أزدمر قواته عبـر الأراضي الحبشية فـهاجم أحد الأديرة شمال غرب أديجرات Adigrat وقتل رهبانه وخرب كنيـسته، وعاد إلى الساحل. ومن جـهة أخرى فقـد دأب العثمانيـون من عام ١٥٥٧م إلى عام ١٥٦٢م على شن إغارات من سواكن على الحبشة.

وعلى العموم فـقد أسفرت حملـة أزدمر باشا عن خضوع حـاكم ميدري بحـري، وهو البحـر نجش اسحق لنفـوذ العثـمانيين، إلا أنه مـالبث أن ثار عليهم وأوقع الهزيمة بالقوات التي أرسلوها لاحتلال شبه جزيرة بوري Buri ذات الأراضي الخـصبـة، وفـرض الحـصـار على دباروا حـتى سـقطت، واضطرت الحامـية العثـمانية أن تلوذ بـالفرار صوب السـاحل. وبعد بضع سنوات انتهز اسحق فرصة اشتداد الخلافات الدينية في الحبشة فأعلن الثورة على النجاشي مـيناس (١٥٥٩م-١٥٦٣م) ولم يجد غضـاضة في الذهاب إلى مـصوع للتـحالف مع البـاشا التـركي على أساس التنازل له عن مـعظم أراضيه بما فيها عاصمته دباروا[٢].

على أن النـجاشي الجـديد صـارصـا دنجل Sarsa Dengel (١٥٦٣م-١٥٩٥م) بعد أن أخـمد الثـورات المحلية التي اندلعت داخل الإمـبراطورية الحبـشية مالبث أن زحف عـام ١٥٧٨ صوب الشرق، واشتـبك مع القوات المشتركة للبحر نجش اسحق والأتراك في معركة بإقليم تيجران الحبشي، لقي فيها كل من اسحق وباشا مصوع التركي حتفهما، ثم اتجه النجاشي شطر قلعة

(١) ميدري بحري أو بحر مدر Bahrmeder أي بلاد الشاطئ أو الإقليم المطل على البحر، وهي أريتريا الحديثـة تقريباً. وكان حاكم مـيدري بحري يتخذ لنفـسه لقب بحرنجش Bahrnag أي سيد أو ملك الإقليم المطل على البحر.

(٢) قطب الدين النهرواني، المرجع السابق، ص ١١٦-١٤٧.

obeikandl.com

دباروا ودك أسوارها وخرب مسجدها. وبذلك أخمدت ثورة اسحق التي ظلت مشتعلة نحو عشرين عاماً، استمر خلالها الحكم التركي قائماً في مصوع والمنطقة الساحلية الممتدة من سواكن شمالاً إلى مصوع جنوباً، وهي التي أطلق عليها الأتراك «ولاية الحبش» باعتبار أنها تمثل مخارج الحبشة.

وفي عام ١٥٨٩م اشتعلت ثورة أخرى بقيادة البحر نجش ولد عزوم Wald Ezum ضد النجاشي صارصا دنجل، واتصل ولد عزوم بباشا مصوع الجديد وتحالف معه، واحتل الأتراك دباروا مرة أخرى، لكن النجاشي سرعان ما زحف على رأس قواته ونصب كميناً للقوات التركية التي كانت قد عبرت نهر مرب جنوباً وأبادها. وانسحب الباشا مسرعاً إلى قاعدته في مصوع وتعقب الأحباش إلى هناك وحاصروا قواته وهاجموها، إلا أنه تمكن من صد هجومهم، وفشلت جميع جهود النجاشي لإلقاء الأتراك في البحر، واضطر أن يعود أدراجه إلى الداخل، ووجد في دباروا هدايا ثمينة من باشا مصوع في انتظاره فقبلها ووافق على أن يعقد صلحاً معه، مما كان من نتيجته - على حد قول لونجريج- أن بقي الأتراك العثمانيون بساحل البحر الأحمر الغربي لمدة ثلاثة قرون أخرى[١].

وبضعف النفوذ العثماني على ساحل البحر الأحمر الغربي منذ أواخر الثمانينات من القرن السادس عشر نتيجة انشغال الدولة العثمانية بجبهات متعددة استعانت السلطات التركية بأحد الزعماء المحليين ليكون «نائباً» عنها في البر الساحلي للمعاونة في أعمال الحكومة بالإدارة بمصوع، كما استعانت بزعيم محلي آخر في سواكن. وكان «نائب البر» يعين بواسطة والي جدة، ويتجدد فرمان تعيينه سنوياً، ويتقاضى مرتباً شهرياً ومبلغاً معيناً

(١) قطب الدين النهرواني، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٥٠.

من إيراد جمرك مصوع مقابل إمداد جزيرة مصوع بالماء العذب من الآبار القريبة والإنفاق على الحامية العثمانية بالجزيرة. وقد تعددت مهام «النائب» فكان مكلفاً بتحصيل الأموال الأميرية والعوائد باسم الزكاة من القبائل، علاوة على تحصيل «رسوم المرور» من المسافرين والقوافل التي تدخل الهضبة الحبشية أو تخرج منها، هذا فضلاً عن فض المنازعات التي تنشب بين القبائل بتخصيص منطقة معينة للرعي لكل منها[١].

والجدير بالذكر أنه رغم أن القوات العثمانية لم تفتح الحبشة إلا أن العثمانيين كانوا يعتبرونها تابعة لهم، مستندين في ذلك إلى أمرين:

أولاً: حق فرض رسوم المرور على المسافرين والقوافل التي تدخل الحبشة أو تخرج منها بحكم احتلال القوات العثمانية لميناء مصوع، منفذ الحبشة على البحر الأحمر والعالم الخارجي.

ثانياً: أن بطريرك الكرازة المرقسية في مصر هو الذي يعين مطران الحبشة، الأمر الذي لايتم إلا برضاء السلطة الزمنية، أي بموافقة السلطان العثماني منذ أن خضعت مصر له عام ١٥١٧م[٢].

فتح العراق:

كان من الطبيعي بعد أن أخضع العثمانيون بلاد الشام ومصر أن يتطلعوا إلى إخضاع العراق فيبسطوا سلطتهم على المشرق العربي ويوقفوا محاولات الصفويين للتوسع غرباً، وكان العثمانيون في أعقاب انتصارهم على الصفويين في جالديران عام ١٥١٤م قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار

(١) المرجع نفسه، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢) د/ عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص٢٧.

بكر وماردين وعينوا حكاماً من قبلهم عليها، وأسرع أمراء بدليس وأردلان والعمادية وجزيرة ابن عمر بتقديم الولاء لهم، وأقيمت حامية عثمانية قوية في منطقة وان، أما بغداد فقد ظلت تحت الحكم الصفوي إلا أن السيطرة الصفوية هناك أخذت تضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبحت اسمية.

وعندما قضى الشاه إسماعيل الصفوي نحبه عام ١٥٢٤م استغل زعيم قبيلة كردية يدعى ذو الفقار خان- وكان حاكماً على الكهلر (أطراف لورستان- فرصة وفاة الشاه مع ضعف الحكم الصفوي في العراق الأوسط فزحف على بغداد وقتل حاكمها الصفوي إبراهيم سلطان، واحتل المدينة بعد حصار قصير، ولكنها مالبث أن شعر بالعزلة والأخطار المحيطة به، ولكي يكسب تأييد العثمانيين ودعمهم أعلن ولاءه للسلطان سليمان القانوني، وأرسل بذلك إلى استانبول مبلغاً ومبشراً، واعتقد أنه نجح في تأسيس دولة كردية موالية للعثمانيين(١).

ولم يكن من المنتظر أن يسكت الشاه طهماسب (١٥٢٥م-١٥٧٦م) ابن الشاه إسماعيل عن انتزاع ولاية غنية كالعراق لها أهميتها بالنسبة للشيعة وتضم عتباتهم المقدسة، فجهز حملة كبيرة وزحف على بغداد عام ١٥٣٠م وحاصرها طويلاً، ولما استعصت عليه اتصل سراً بشقيقي ذي الفقار وحرضهما ضد أخيهما، فاغتالاه وسلما المدينة للشاه. وبذلك حققت الخيانة ماعجز السلاح عن تحقيقه، وانتهت وصاية استانبول على حاكم بغداد وعاد طهماسب إلى عاصمته قزوين تاركاً محمد خان والياً على العراق.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

وهكذا توترت العلاقات من جديد بين العثمانيين والصفويين، وساعد على ذلك تأرجح أمراء الأكراد على الحدود في ولائهم بين السلطان والشاه، فحاكم بدليس شرف خان خضع للنفوذ الصفوي بعد أن كان موالياً للعثمانيين، وبالمثل لجأ حاكم تبريز الصفوي إلى العثمانيين فبعثوا به لقتال شرف الدين، هذا فضلاً عن قيام الأكراد الموالين للفرس بشن الغارات على ولايتي ديار بكر وحلب. واستعاد العثمانيون أيضاً محاولة طهماسب إثارة قبائل القزلباش في الأناضول، مقتفياً بذلك خطى سلفه الشاه إسماعيل، وكانت ثورة قد اندلعت في الأناضول بقيادة قلنور جلبي عام ١٥٢٧م بتشجيع من الصفويين. كذلك لم ينظر العثمانيون بارتياح لاتصالات الدول الأوربية بالصفويين، إذ استقبل الشاه طهماسب عام ١٥٢٩م سفراء من البرتغال والدولة الرومانية المقدسة، الذين عرضوا عليه المساعدة ضد العثمانيين، وقد علم السلطان سليمان القانوني بذلك من عيونه وجواسيسه ببلاط طهماسب، زد على ذلك أن مبعوثي أهل السنة في بغداد صاروا يتوافدون على استنابول للاستنجاد بالسلطان العثماني وحثه على إنقاذ السنة من الحكم الشيعي، ويغلب على الظن أن هؤلاء المبعوثين كانوا يبالغون في وصف ما أصاب السنيين في بغداد من مذابح وتنكيل على أيدي الصفويين(١).

ولهذه الأسباب قرر السلطان سليمان احتلال العراق، فقاد الصدر الأعظم إبراهيم باشا جيشاً غادر استانبول في ٢١ أكتوبر ١٥٣٣م وقضى فصل الشتاء في حلب ثم اتجه نحو ديار بكر وجرت بعض الاشتباكات بينه وبين الأمراء المحليين في مناطق الحدود، واعترف كثيرون منهم بالسيادة

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٤، ص٤٦-٥٢.

العثمانيـة، ثم انطلق نحو تبريز فاحتلها في ١٣ يوليو ١٥٣٤م وقـدم له فيها الأمراء المحـليون خـضوعهم، وبـقي إبراهيم باشا في تبـريز إلى أن لحق به السلطان سليمـان هناك، واتجه الاثنان نحو بغداد عن طريق هـمذان بهدف السيطرة على الطريق الذي يربط بغداد بالشـمال والشرق، وقطعت القوات العثـمانيـة بذلك إمكانية نجـدة الصفـويين لبغـداد. ولم يحاول طهـماسب التـصدي للهـجوم الـعثـماني، مما أخـاف الأمراء الخـاضـعين للصفـويين والمنتشرين على الطريق إلى بغداد، فأعلنوا خضوعهم للعثمانيين، وفي أثناء ذلك كان محمد خان حاكم بغداد الصفوي متردداً قلقاً لا يدري ماذا يفعل، ولكنه مـا أن رأى الشاه قـد تخلى عنه ولم يرسل له مـدداً ، وأدرك أن الجند والأهالي يرحبون بالفاتح الجديد ولايريدون مقاومته حتى تظاهر أنه سيرحب بالسلطان مـثلهم ثم فـر إلى فارس. ودخل الـصدر الأعظم بغـداد في ٣١ ديسمبر ١٥٣٤م، وبعد يومين دخلها السلطان سليمان وسط مظاهر الحفاوة الشيعية.

ولم تتوغـل القوات العثـمانيـة جنوباً إذ هرع زعمـاء القبائـل إلى بغداد مـعلنين ولاءهم للسلطان العـثمـاني، وكان من بينـهم شيخ المنتـفق وأميـر البصرة راشد بن مغامس الذي كان قد اسـتقل بها، فأبقاهم سليمان ولاة من قبله. وهكذا خـضعت البصـرة للعثمانيين ونجـم عن ذلك إلقاء مسئـوليات دفاعـية جديـدة على عاتقهم، وخـاصة ضد الـبرتغاليين في منطـقة الخليج العربي[١].

(١) د/ عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص٢٩.

وفي خلال الشهور القليلة التي قضاها السلطان سليمان في العراق لإراحة قواته من ناحية ولتنظيم أحوال الولاية الجديدة من ناحية أخرى حاول العاهل العثماني إرضاء الشيعة والسنة على السواء بكل ما وسعه من جهد. وبخصوص السنة قام سليمان بجهد خاص للبحث عن موقع قبر الإمام أبي حنيفة وإعادة بناء ضريحه الذي كان الصفويون قد هدموه ودنسوا الرفات نفسه، وأصبحت القبة التي بناها سليمان على ضريح أبي حنيفة مزاراً سنياً عظيماً على مدى العصور. وأما عن إرضاء الشيعة فقد قام سليمان بزيارة ضريح عبد القادر الكيلاني، وقبة موسى الكاظم، وقبر الإمام علي بالنجف، وبنى سداً عُرف «بسد السليمانية» على مدينة كربلاء لحماية المزارات بها من مياه الفيضان التي كانت تغمر المنطقة المحيطة بكربلاء كما كانت تغمر المزارات نفسها داخل كربلاء، ووسع الترعة المعروفة بالحسينية وزاد من عمقها لكي تأتي بالماء باستمرار، فزرعت المنطقة حول العتبات المقدسة بالبساتين وحقول القمح.

وبعد أن عين السلطان سليمان حاكم ديار بكر العثماني سليمان باشا والياً على بغداد، وأبقى فيها حوالي ألفين من الجنود غادرها في ٢ أبريل ١٥٣٥م باتجاه أزربيجان، واحتل كثيراً من القلاع الاستراتيجية في منطقة كركوك لحماية المناطق التي فتحها، ووصل تبريز في ٢ يوليو فاستسلمت له واضطر الشاه الصفوي إلى طلب الصلح، ووافق السلطان على ذلك وأخلى له تبريز مقابل تقديم الشاه الطاعة للسلطان، ثم غادر سليمان المنطقة ووصل استانبول في ٢٩ديسمبر من العام نفسه.

ومما يجدر ذكره أن الفتح العثماني للعراق في عهد السلطان سليمان القانوني لم ينه النزاع العثماني الفارسي حول هذه البلاد، فقد عاد العراق

إلى السقوط أكثر من مرة بعد ذلك في يد الفرس.

الخليج العربي:

عرفنا أن البصرة قد خضعت للعثمانيين على إثر فتحهم بغداد، إذ كان أمير البصرة البدوي راشد بن مغامس من بين زعماء القبائل الذين هرعوا إلى بغداد معلنين ولاءهم للسلطان العثماني، فأبقاه الأخير والياً على البصرة من قبله. ولما تمرد راشد وأيد ثورة القبائل على السلطان قاد إياس باشا والي بغداد حملة عام ١٥٤٦م على البصرة تمكنت من هزيمة أسطولها النهري وإحراقه، ففر راشد إلى نجد بينما دخل إياس باشا البصرة وأعلن خضوعها للسيطرة العثمانية المباشرة.

وعلى إثر احتلال العثمانيين للبصرة حاولوا أن يوجهوا اهتمامهم إلى شط العرب باعتباره منفذا لهم إلى الخليج العربي، وأرادوا أن يجعلوا من البصرة قاعدة للانطلاق منها ضد البرتغاليين في مياه الخليج ، ولذلك بنوا أسطولاً بلغ عدد قطعه ثلاثين قطعة، إلا أنه كان أسطولاً ضعيفاً فسفنه محلية الصنع وصغيرة، كما أنها رديئة التركيب وضعيفة التسليح.

واحتل العثمانيون عام ١٥٥٠م القطيف ثم مدوا نفوذهم إلى الأحساء التي احتلوها عام ١٥٥٥م، وأبعدوا عن حكمها قبيلة بني خالد[١] القوية . وجعلت الأحساء ولاية عثمانية قاعدة أمامية للدفاع ضد البرتغاليين المتمركزين في هرمز، وكذلك ضد الصفويين، واشترك والي الأحساء مع والي البصرة في صد غزوات البدو عند مناطق الحدود مع الجزيرة العربية[٢] .

وفي أثناء ذلك لم يتوقف الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين في مياه

---

(١) ظلت هذه القبيلة تقوم بالثورة تلو الأخرى حتى استعادت حكم الأحساء عام ١٦٧٠م.

(٢) عباس العزاوي ، المرجع السابق، جـ٤، ص٤٩-٥٠٢.

الخليج، ففي عام ١٥٥٢م أبحر من السويس أسطول عثماني كبير بقيادة بيري ريس لاحتلال الطرف الشرقي من الجزيرة العربية وقطع خطوط الإمداد المحلي للبرتغاليين، واحتلت الحملة مسقط ثم أبحرت إلى هرمز وضربت الحصار على قلعتها لمدة شهر، ثم انسحبت على إثر رواج إشاعة عن قرب وصول نجدة برتغالية لشن هجوم معاكس وقطع خط الرجعة على الأسطول العثماني، وقد جاءت هذه النجدة بالفعل فوجدت أن العثمانيين قد رحلوا عن هرمز، فعادت إلى جوا عاصمة الهند البرتغالية. أما بيري ريس فكان قد التجأ إلى البصرة، وبعد أن ترك هناك معظم أسطوله، عاد هو بثلاث سفن إلى السويس فقد إحداها في الطريق. ومن مصر عاد براً إلى تركيا بقافلة من الجمال محملة بالهدايا ليهدئ من غضب السلطان، إلا أنه اتهم بالخيانة وأعدم. ويبدو أن صراعاً خفياً نشب بينه وبين والي البصرة العثماني، فأصدر أمراً للتخلص منه.

وتلا ذلك أن كلف السلطان سليمان عام ١٥٥٣م قائداً بحرياً جديداً هو مراد بك بالتوجه إلى العراق للخروج بقطع الأسطول العثماني المحصورة في خليج البصرة، ونزل مراد بالبصرة وبعد أن أبحر بأسطوله خاض معركة غير حاسمة مع البرتغاليين بالقرب من الساحل الفارسي، فاضطر إلى العودة إلى البصرة[(١)].

ثم كلف السلطان أحد القادة البحريين المشهورين وهو سيدي علي ريس- الذي خاض الحروب في البحر المتوسط وتدرب على يد خير الدين برباروسا- بالتوجه إلى البصرة لقيادة قطع الأسطول العثماني فيها. وأقلع الأسطول العثماني من البصرة في يوليو ١٥٥٤م قاصداً القطيف فالبحرين،

(١) عباس العزاوي، المرجع السابق، جـ٤، ص٦٧.

وعلم من طلائعـه أن لا أثر للأسطول البـرتغالي في الخليج، فـأبحر باتجـاه هرمز ولكن البـرتغاليين اعتـرضوا طريقه عـند مضيق هرمـز ثم بالقرب من مسقط، ونجح في التخلص منهم ودفعت الرياح الأسطول العثماني في اتجاه شمالي شرقي فـوصل ميناء بندرهاهبور الفارسي فتزود بالميـاه، وقصد بعد ذلك سـواحل اليمن، ولكـن الرياح دفعـته مـرة أخـرى نحو سـاحل الهند الغـربي، فاضـطر إلى الالتجـاء إلى مـيناء سـورات حيث باع مـاتبـقى من أسطوله وعاد بطريق البر خوفاً من تعرض البرتغاليين له إذا عاد بحراً[١].

المغرب العربي :

ارتبط التوسع العـثماني في الجناح الغـربي من العالم العربي بالحـملات والإغارات التي شنها الأسبان على العرب والمسلمين في شمال إفريقية، كما ارتبط الصراع بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي من البحر المتوسط، ذلك الصراع الذي اجتذب كما سبق القول عدداً كبيراً من البحارة والمغامرين الذين نشـأوا في خـدمة الأسطول العـثماني، ومن أبـرز هؤلاء المغامـرين الشقيقان عروج وخير الدين بربارروسا.

ولما ضـاق أمـراء المغـاربة - وخـاصـة فـي الجـزائر- بضـغط الأسـبـان واضطهادهم دعوا عروج وأخاه خـير الدين لإنقاذهم وتحرير بلادهم، وكان الأخوان بعد أن قـويت شوكتهـما وطار صيتهـما قد تحولت أهدافـهما من «القرصنة» إلى الاسـتقرار والتـملك، معتمـدين على القوة البحـرية ورضاء الأهالي عنهما. وحين قتل عروج على أيدي الأسبان عام ١٥١٨م[١] بعد أن نجح في ضم صفـوف الشعب الجـزائري رأى أخوه خيـر الدين أن الإمارات المغربية بحالـتها الراهنة عاجزة عن الصمود وحـدها للخطر الأسباني، وأن

(١) د/ عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص٢٩.

الدولة العثمانية أقدر على القيام بهذا العمل الخطير، ولذلك طلب المعونة من حكومة الأستانة فأدخله السلطان سليم الأول في خدمته وأمده بألفين من الإنكشارية، وسمح لرعاياه بالتطوع في جيش المغرب. وبهذه الطريقة دخلت الجزائر رسمياً عام ١٥١٨م في حظيرة الدولة العثمانية، كما دخل العثمانيون في حلبة الصراع البحري بين العرب والأسبان في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتمكن خير الدين- باسم السلطان العثماني - من تخليص المنطقة الساحلية من الجزائر من الاحتلال الأسباني، واستولى على القلعة التي بناها الأسبان على جزيرة مواجهة للساحل، وقام بوصل هذه الجزيرة بالبلاد عام ١٥٢٩م فأصبحت نواة لمدينة الجزائر الحالية(١).

أما طرابلس الغرب (ليبيا) فإن أهلها الذين قاموا كثيراً على أيدي الأسبان ثم فرسان القديس يوحنا هم الذين دعوا العثمانيين للمجيء إلى بلادهم، ذلك أن الليبيين وقد أدركوا عدم قدرتهم وحدهم على طرد الغزاة قرروا طلب العون من الدولة العثمانية، فأرسل أهل مدينة تاجوراء لهذا الغرض وفداً إلى استانبول. ولما كان العثمانيون يتطلعون لتوسيع رقعة أراضيهم ومضايقة البحرية الأسبانية والقضاء على النشاط العدائي لفرسان القديس يوحنا الذين تمكنوا خلال أعوام قليلة من إقامة تحصينات قوية في طرابلس أو «رودس الثاني» فقد استجاب السلطان سليمان لطلب الوفد الليبي وأرسل مراد أغا على رأس قوة عسكرية صغيرة لاستطلاع أحوال البلاد .

وعندما وصل مراد أغا إلى تاجوراء حاول الاستيلاء على طرابلس، ولكنه فشل لقلة جنده وقوة تحصينات أعدائه، ولهذا بقي فترة طويلة في تاجوراء يستعد للهجوم من جديد بعد أن طلب المساعدة من السلطان. وفي

(١) د/ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٣-٤٧.

انتظار المدد من استانبول عني مراد أغا بتحصين تاجوراء وتهيئة سبل المواصلات بينها وبين طرابلس، ولم يلبث أن أمر السلطان سنان باشا بالتوجه بقواته وأساطيله لمساعدة مراد أغا، وتمكن سنان باشا - ومعه درغوث باشا - من الاستيلاء على مدينة طرابلس ودخولها في ١٦ أغسطس عام ١٥٥١م، حيث كانت طلقات المدافع تحيي المدينة التي لم تعد منذ ذلك التاريخ خاضعة للقوى المسيحية. وبهذا غدت ليبيا ولاية عثمانية، كما أضحى ميناء طرابلس معقلاً هاماً من معاقل العثمانيين في شمال إفريقية وفي البحر المتوسط[١].

وقبل أن يغادر سنان باشا طرابلس عائداً إلى الأستانة، ترك بالبلاد حامية تركية صغيرة من الانكشارية، كما ترك درغوث باشا لمساعدة الوالي العثماني مراد أغا (١٥٥١م-١٥٥٣م) في توطيد أركان الحكم الجديد، وأسهم درغوث في بسط النفوذ العثماني على مقاطعات مصرات وزوارة وجربة، وفي الداخل حتى سفوح الجبل. ومن أهم الأحداث التي تميز عهد ولاية مراد أغا القصيرة تلك الحملة الفاشلة التي قام بها فرسان القديس يوحنا من مالطة على زوارة عام ١٥٥٢م بقصد النهب والسلب، واستطاع الفرسان أن يلحقوا بالمدينة الدمار وأن يأسروا من أهلها خمسمائة شخص، ولكن مراد أغا سرعان ماداهمهم بخيوله وجيوشه فولوا هاربين نحو الساحل تاركين كل ماكانوا قد استولوا عليه من أموال وأسرى. وبينما كان مراد أغا يصد في زوارة فرسان مالطة ويشتت جموعهم كان درغوث باشا يقاوم في البحر وتمكن من التوغل بغاراته البحرية حتى سواحل كالابريا، وجمع غنائم كبيرة وعدداً ضخماً من الأسرى، ثم توجه إلى الأستانة.

(١) محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٨٤/١٨٦٩، بيروت، ١٩٩٦، جـ٢، ص٢١٦.

وأما تونس فقد اكتسبت أهمية خاصة في الصراع الأسباني العثماني بالبحر المتوسط نظراً لموقعها الجغرافي، ولذا تبادل الفريقان المتنازعان احتلالها أكثر من مرة، وكان خير الدين برباروسا بعد أن فرغ من تخليص المنطقة الساحلية من الجزائر قد عرض على العثمانيين فتح تونس، منتهزاً فرصة قيام فتن أهلية وحروب داخلية بين مولاي الحسن الحفصي آخر سلالة بني حفص وبين إخوته على الملك، بالإضافة إلى كراهية أهل تونس لمولاي الحسن لاعتقادهم بأنه ألعوبة في يد شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. ولبى السلطان سليمان طلب خير الدين وزوده بمائتين وخمسين سفينة حربية، فتم له فتح تونس بسهولة ويسر عام ١٥٣٤م.

على أن شارل الخامس ما لبث أن قاد أسطولاً أسبانياً من برشلونة وفتح تونس في العام التالي، وأعاد الحسن الحفصي إلى العرض بعد أن وقع على معاهدة شبيهة بمعاهدات الحماية، ثم غادر البلاد عائداً إلى أسبانيا. ولم يتقاعس العثمانيون فطردوا الأسبان من المدن الساحلية بفضل حملات درغوث باشا، وبمساعدات القبائل العربية. وظلت الحرب مشتعلة بين الأسبان والعثمانيين مدة طويلة، وبعد أن استرجع العثمانيون مدينة تونس عام ١٥٧٠م عاد إليها الحكم الأسباني المباشر عام ١٥٧٣م ثم غزاها في العام التالي أسطول تركي جاء من الأستانة بقيادة سنان باشا، بينما زحفت إليها قوات تركية أخرى من طرابلس الغرب والقيروان. وهكذا استردت تونس بصفة نهائية عام ١٥٧٤م، وأصبحت ولاية تابعة للدولة العثمانية وجزءاً من ممتلكاتها في شمال إفريقية الممتدة من الجزائر غرباً إلى مصر شرقاً(١).

---

(١) أحمد بن أبي ضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ٨ أجزاء، تونس ١٩٦٣-١٩٦٨، جـ٣، ص ٩-١١.